● الفصل الثانى

المدارس النظامية

أسباب إنشائها، منزلتها وتأثيرها.
تعيين الأساتذة وترقياتهم العلمية.
القبول والتخرّج والإجازة الدراسية.
الكتاب المدرسى وموضوعات الدراسة وطرق تدريسها.
نظاميّة بغداد: افتتاحها وأشهر مدرسيها
نظاميّة نيسابور، وأصفهان، ومرو، وهراة
وبلخ، وطوس، وآمل، والموصل،
والبصرة، وعسكر مكرم.
المكتبات النظاميّة العامة والخاصة..
والمخطوطات النادرة فيها .
من المآخذ على النظاميّات.

obeikandl.com

obeikandl.com

نظام الملك ينشىء المدارس الحكوميّة

دوافع إنشائها ومنزلتها :

ومهما كانت الأسباب التى دفعت السلاجقة لدخول بغداد: أهى استمرار للفتح الذى امتد من نهر جيحون حتى شمل خراسان وبلاد الجبل، أم لنجدة الخليفة ـ القائم ـ الذى استغاث بطغرلبك ـ مؤسس الدولة الأول. . وسواءٌ أكان لأطماع سياسية أم لأغراض دينية فإنه من غير شك انتصارٌ للمذهب السنّى بطوائفه الأربع على التشيّع بنحله المتعددة وبخاصة الباطنى منها.

لقد تسربت الباطنية فى سوريا وفارس والعراق وأخذت انفصالات الطامعين فى الحكم تظهر هنا وهناك بفضل إغراء الدعاة وإثارتهم: فطاف ـ ناصر خسرو ـ ومن بعده ـ حسن الصبّاح ـ يدعوان للمذهب الباطنى الإسماعيلى، وقام ـ إبراهيم ينال ـ ثم البساسيرى فى الموصل وبغداد بثورتين عنيفتين كادتا تقضيان على الخلفاء والسلاجقة جميعًا، وكان لدار الحكمة والأزهر اللذين أسسهما الفاطميون فى القرن العاشر الهجرى بالقاهرة الفضل الأكبر فى بثّ مبادئ التشيّع الإسماعيلى ونشر الحكم الفاطمى.

ولم يكن إيقاف حركة الباطنية هذه فضلاً عن القضاء عليها بالأمر الهيّن؛ لأن جذورها قد تغلغلت فى جسم البلد الإسلامى الكبير بحيث لم يبق عضو منه سليمًا وبخاصة إقليم خراسان فإنه كان موطن المغذِّين لها بالآراء الفلسفية والبراهين المنطقية إن لم يكن من المؤسسين لها، لذلك فقد روّد دعاتها بأنواع من العلم كثيرة وعميقة واتخذ هؤلاء وسيلتهم الإقناع والحجة عن طريق الحوار

والمناقشة، وهو الذى ناصر «أبناء على » منذ عهد بنى أمية وهو الذى آزر بنى العباس باسم العلويين، فأمدّ المأمون بكتائب من الجيش المدرّب المستميت من أجلهم حتى استقر الملك له.

وقد نشأ «النظام» ـ كما عرفنا ـ أشعريّا شافعيّا، ولئن كانت الشافعية مذهبًا لا يحسّ معتنقوه بنقمة الحاكمين وقسوة المحكومين فإن الأشعرية كانت تلاقى عنفًا وشدّة منهما فى كثير من المناسبات وهم من السنّة فكيف الحال بالنسبة الى الإسماعيلية وبخاصة الباطنية. . . فعلى «النظام» إذا أراد لدولته الفتيّة البقاء ولأهدافه الإسلامية الانتشار أن يتخذ الأهبة لمقابلتهم بنفس الوسائل التى استعملوها وأن يهيئ لأعوانه ومساندیه الأسباب التى اتخذوها، وعليه أن يسلك الطريق نفسه كما سلكوه من تأسيس المدارس ونشر علوم الدين ومناقشة العوام بمسائل الخلاف، لأن الجيش والحرب والسياسة المجحفة وحدها لا تجدى نفعًا، فالحجّة لا تقرع إلاّ بالحجّة والعقل لا يقبل مناظرًا له إلاّ العقل، ولا يرتضى نظيرًا له إلاّ الفكر، ولأن الفكرة الفاسدة لا يمحوها السيف بل ربما ينميها، وأن التشريد والنفى والمقاصل تجعل من الميل للفكرة تصديقًا لها وايمانًا بنفعها وصحتها.

وقد أدرك «النظام» هذه الحقيقة وفهمها أكثر من غيره حينذاك فما عليه إلاّ أن يأتى مناوئيه من السبيل الذى ولجوه ويفسد عليهم خططهم بتخريج جماعات مسلّحة بمختلف ثقافات العصر مزوّدة بالإيمان مع العلم، فلم يتسلم منصبه الوزارى حتى شرع فى تأسيس مدارسه النظامية فى أمهات المدن وحواضر الأمصار من العراق وفارس إلى ما وراء النهر، وسلّم منابر التدريس فيها إلى علماء الشافعية من الأشعرية، وبهذا انتصرت هذه كما انتشرت تلك ولا سيما فى إيران على يد «النظام». .

وهو فى بناء مدارسه هذه لم يؤثر بلدًا على أخرى، كما لم يفضّل فى اختياره الأساتذة ـ ماداموا على مذهبه ـ شخصًا على آخر. وبذلك شملت رعايته العلمية حتى المدن الصغيرة النائية إذا بلغ مسمعه نبأ وجود من هو جدير بتأسيس معهد أو رباط.

وكان لكل معهد طابعه الذى تمليه عليه البيئة وما يحيط به من ظروف اجتماعية ودينية وعلمية وهيئة تدريس، وكان التنافس بين تلك المعاهد شديدًا أحيانًا بفضل مشاهير العلماء الذين يحاضرون فيها. وكان طلاّب العلم يتعصّبون لواحد منها ويرحلون لتلقى العلم فيه وإذا تخرّجوا أصبحوا من خيرة وسائل الدعاية له.

فلم ينشأ ـ ابن عساكر ـ المتوفى سنة ٥٧١هـ مؤرّخ الشام ويتسامع بنظامية بغداد حتى رحل إليها وسمع الدروس بها، ثم رجع إلى بلاده وألّف كتابه الكبير فى تاريخ دمشق[١]. ولم يبلغ صيت هذه المدرسة مسامع ـ ابن تومرت ـ حتى شدّ إليها الرحال من جبل السوس فى أقصى المغرب لكي يتفقّه على الغزالى والكيا الهراسى ثم يعود إلى موطنه يناظر علماء فاس بعلم الاعتقاد على طريقة الأشعرى ويظهر عليهم ثم يذهب ويدعو لنفسه ويؤسّس دولة الموحدين على أنقاض دولة المرابطين الملثّمين[٢].

وقد نالت النظاميات شهرة واسعة ومنزلة رفيعة بين المدارس التي انتشرت حينذاك بحيث أصبح التدريس فيها أمنية كبار العلماء حتى بذل بعضهم من التضحيات الشيء الكثير فى سبيل الوصول إليها. فهذا أبو حامد البروى[٣] كان إذا توسط المجلس بالمدرسة النظامية يلتفت إلى موضع التدريس وينشد معرضًا بما فى نفسه من رغبة ومشيرًا إليه بقول المتنبى:

بكيت يا ربع حتى كدت أبكيكا ... وجدت بى وبنفسى فى مغانيكا
أنعم صباحًا لقد هيجّت لى شجنًا ... وارْدُدْ تحيّتنا إنا محبوكا
بأى صرف زمان صرتَ متخذا ... رئم الفلا بدلا من رئم أهليكا

(١) طبقات السبكى جـ ٤ ص ٢٧٥.

(٢) نفس المصدر جـ ٤ ص ٧١ ـ ٧٤.

(٣) هو محمد بن محمد البروى الفقيه المتوفى سنة ٥٦٧هـ، كان يحضر النظامية والدرس بها يومئذ لأبى نصر الشاشى. (انظر: ترجمته فى المختصر الجامع لابن الدبيثى جـ ١ ص ٣١، والوافى للصفدى جـ ١ ص ٢٧٩).

وهذا عبد الرحمن الطبرى أنفق الأموال والذخائر حتى ولّى التدريس فى النظامية، قيل إنه صرف فى الرشوة من أجل ذلك ما لو أراد لبنى مدرسة كاملة[١]. ثم الفقيه ـ أبو بكر المبارك بن الدهان ـ انتقل إلى المذهب الشافعى لمّا وجد منصب «النحو» فيها شاغرًا فتولّى التدريس عدة سنين ت ٦١٢هـ فقال فيه المؤيد أبو البركات التكريتى[٢] وهو تلميذه:

من مبلغ عنى الوجيه رسالة ... وإن كان لا تجدى لديه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل ... وذلك لما أعوزتك المآكل
وما اخترت قول الشافعى تدينًا ... ولكنما تهوى الذى هو حاصل
وعما قليلٍ أنت لاشك صائر ... إلى مالكٍ فافطن لما أنا ناقل

تعيين الأساتذة وفصلهم:

وكان اختيار الأساتذة للتعليم فى النظاميات يجرى وفق تقاليد تشبه أرقى الجامعات الحديثة، فقد كان «النظام» يختبر معلوماتهم خلال المناظرات التى كان يعقدها فى المناسبات المختلفة، ويلقى عليهم أسئلة كان قد فكّر وأعدّها، فإذا لمس فى أحدهم علمًا وذكاءً وجّهه إلى المسلك الذى يريده، فالذين يكونون أهلاً للتعليم عيّنهم أساتذة فى الحال وأسّس لهم مدرسة ومكتبة أو يوفدهم إلى ولاية سكانها جهلاء[٣]، وإذا صدر الأمر بالتعيين سار المدرس إلى الجهة التى اختير لها، فإذا كان إلى بغداد مثلاً توجه إلى دار الخلافة عند وصوله حيث يوافق على التعيين، ثم يخلع عليه طرحة زرقاء وأهبة سوداء[٤]، ويحتفل به فى المدرسة حين يقدم لأول مرة ويحضر درسه كبار رجال الدولة والأساتذة

(١) الطبقات جـ ٤ ص ٢٤٤.

(٢) ابن خلكان ـ الوفيات، والصفدى: نكث العميان الهِمْيان فى نُكَتْ العميان ص ٢٣٣- ابن الأثير ـ المثل السائر ويريد بمالك، مالك بن أنس أو خازن الدار.

(٣) آل سلجوق ص ٥٤.

(٤) الأهبة ـ البزة الرسمية كما فى تاريخ المماليك أو السلاح التام.

والشعراء وحين ينتهى من درسه تلقى الخطب والقصائد فى الترحيب به والثناء عليه[١]. وكان على الأستاذ كذلك أن يقيم وليمة يدعو فيها زملاءه وتلاميذه ولم يخرج على هذه القاعدة سوى الغزالى فلم يؤاخذ عليه لمكانته فى النفوس[٢]. وإذا ما أريد فصل مدرس لسبب ما استدعى من قبل ممثل «نظام الملك» وغالبًا ما كان أحد أولاده، وينزع منه كسوته[٣].

مراتب التدريس:

وقد جرى العرف أنه إذا تم تعيين من تتوافر فيه شرائط القدم والشهرة أن يبقى فى منصبه طوال حياته فإذا دنت منه الوفاة فغالبًا ما يوصى بمن يخلفه من كبار أبنائه أو المتفوّقين من طلابه، إلاّ فى مدارس «النظام» فقد خرجت على المتعارف هذا لأسباب سياسية بعد أن خضعت هذه المدارس لحكمها وإرادة مؤسسها، وقد يتناوب مدرسان على كرسى واحد خلافًا للمألوف.

المدرس: كان هذا اللفظ لا يطلق إلاّ على المختص بتدريس الفقه وإلقاء الدروس لا يقصد بها فى العادة سوى مواضيع الفقه فإذا بلغ المدرس مرحلة عالية من الشهرة فى الاطلاع والتأليف صار أستاذًا وأصبح له كرسى المادة دون منازع فيه.

النائب: وهو المكلف بالقيام فى تدريس الموضوع نيابة عن المدرس إذا كان مشغولاً بعمل إدارى أو قضائى أو لمرض أو سدّ الشاغر فى فترة لا يوجد فيها مدرس[٤].

المعيد: يختار المدرس من بين طلبته معيدين لدروسه وقد يكتفى بواحد حسب حاجته، ومهمته أن يلقى الدرس على الطلبة وأن يساعدهم فى فهمه،

---

(١) طلس ـ نظامية بغداد، عن ابن الأثير جـ ١٠ ص ٦٨، وطبقات الشافعية جـ ٢ ص ٣٥٠.

(٢) الطبقات جـ ٤ ص ١٣.

(٣) أسعد طلس ـ نظامية بغداد عن ابن الساعى ـ تاريخ بغداد ص ٢١٩، وابن الفوطى - الحوادث الجامعة ص ٢.

(٤) السبكى: طبقات الشافعية جـ ٤/٨٦.

لذلك فهو يحتاج إلى لباقة واطلاع، لذا كان من هؤلاء المعيدين مدرسون فى مكان آخر.

وكما كان للمعلّمين درجات فإن للمتعلمين - كما تشير النصوص المستعملة فى هذا الباب - كذلك: ولعلّ أولى درجات الدارس أن يطلق عليه اسم تلميذ أو طالب ثمّ بعد أن يصل المرحلة العالية في المعرفة يقال له: مثقف ثم فقيه. فإذا أكمل دراسة منهجه وبقى ملازمًا لأستاذه ليتكمل علومه يسمى بالصاحب وقد يعتمد عليه أستاذه فيعينه معيدًا لدروسه، وناسخًا لمؤلفاته تحت إشرافه.

الكتاب المدرسي:

والذى يلوح لنا من خلال سِيَرْ أساتذة النظامية وطرق تعيينهم أن التأليف كان من الاعتبارات التى تراعى عند اختيارهم، لذلك لم نجد فى أسمائهم غير مؤلفين خاصة فى عهد «النظام»، وكانت الدرجات العلمية التى تمنح لهم أو يعيّنون بها، أو ينتقلون بموجبها إنما تعتمد على هذا الأساس فى الغالب. وكان الكتاب المدرسى الذى يضمّ مجموعة محاضرات الأستاذ، سرعان ما ينتشر فلم يمله على طلبته ويسمعون عنه حتى يستنسخونه ويتبادلون النسخ المصحّحة أو المجازة من قبل مؤلفها، ولم تمر فترة قصيرة حتى يتدارسه المعنيّون بموضوعه فقد تحدث الغزالى عن - ابن سينا - وأثنى عليه وأشاد بتحقيقه، ودقة نقله[1]. مع علمنا بأنهما متعاصران تقريبًا.

وقد يطلق على مجموعة تقريرات الأستاذ فى الفقه اسم - التعليقة - فيحفظونها الطلبة ويتناقلونها، ومن هذه التعليقات ما يبلغ بضع مجلدات، وكلّما كانت التعليقة أكثر أصالة كانت أكثر انتشارًا وتدارسًا من قبل المعنيين.

وكان من عادات الأساتذة إذا ختموا كتابًا احتفلوا لذلك. ومما يروى بهذا الشأن أن الإمام الجوينى عندما أتمّ تصنيف كتابه - نهاية المطلب فى دراسة

(١) الغزالى - التهافت ص ٩.

المذهب ـ وكان قد درّسه للخواص من تلاميذه ـ عقد مجلسًا حضره الأئمة الكبار، وختم الكتاب على رسم الإملاء والاستملاء، ودعا له الجماعة وتبجحوا به[1].

موضوعات الدراسة وطرق تدريسها:

بين المعبد والمدرسة سواء أكان مسجدًا أو كنيسة، صلات وثقى منذ القدم إذ نشأت فى ظلاله، وما أن ترعرعت ونمت حتى انفصلت عنه انفصال الأرض عن الشمس، حيث بقيت تلازمه، ولم تستطع الانطلاق عن مدار تعاليمه وقواعده إلاّ بقدر معلوم، لذلك بقيت أساليب التعليم اتباعية وأكثر ما تعتمد عليه الاستماع والإملاء والحفظ.

وظل العلم يحاول استقلاله عن المعبد زمنًا طويلاً ولم يكد يتخلص من فرض سلطانه عليه حتى فرضت السياسة سيطرتها.. وبقى الدين والسياسة يتنازعان النفوذ فى تسخير العلم لأغراضهما حتى الوقت الحاضر.. وكان القرن الخامس ـ كما نعتقد ـ من العصور التى ضاق بها العلم ذرعًا من تزمت المتدينين واستبداد الساسة.

وكان «نظام الملك» ـ ممن يرى فى العلم أفضل وسيلة لتنوير أذهان الناس وإفهامهم الحق والخير ـ كما يعتقدهما ـ وطرد الخرافات وانتزاعها من نفوسهم، وهو فوق ذلك دعامة للدين الصحيح وسند للدولة القائمة. ومادام «النظام» شافعيًا أشعريًا واعتقاده بأن طريق الخلاص من المبادئ الخبيثة لا يكون إلاّ بنشرهما وتوحيد الأقطار على أساسهما فقد اشترط في أساتذة نظامياته المذهب الشافعى.

وكان منهج التعليم الذى يسير بمقتضاه الأساتذة شاملاً لمجموعة العلوم الإسلامية المعروفة كالقرآن والحديث، ثم أصول الفقه والفقه على المذهب الشافعى وعلم الكلام على رأى الأشعرى، ثم مجموعة اللغة العربية كالنحو والصرف والبلاغة والعروض.. وكان تسلسل المنهج وتطبيقه تربويًا سليمًا إلى

(١) التهافت: الغزالى ص ١١.

حد كبير فقد دلتنا التراتيب التعليمية التى وصلتنا على أن مناهج الدروس التى يسير بموجبها الطلبة تتدرج من السهل إلى الصعب. ومن البسيط إلى المركب إذ تبتدئ بالعلوم النقلية التى تعتمد على اللسان ومقوّماته ثم تنتقل بالطالب إلى العلوم العقلية التى تعتمد على التفكير.. ومن هنا كان النحو والصرف بداية المرحلة الدراسية الطويلة وكان الفقه وأصوله هما النهاية التى ترافق الطالب إلى اللحد.. وذلك لأن الفقه بمعناه الخاص فلسفة التشريع على اختلاف مذاهبه وهى مرحلة الاجتهاد فى الحقوق والمعاملات التى تستغرق بقية العمر.

ولم تزل خطة التدريس باقية فى المدارس الدينية الموجودة فى أمهات المدن الإسلامية، وأن الزائر لإحداها فى الأزهر وجامع الزيتونة والقرويين فى مصر والمغرب، والنجف، والكاظمية والموصل من مدن العراق، وفى إيران وباكستان وتركيا ليشاهد حلقات الدرس المنظّمة التى تعقد صباح كل يوم إلى قرب صلاة الظهر حيث يتلقى فيها الطلبة دروسهم على يد أساتذتهم المتخصصين، ثمّ تستأنف فى العصارى والأماسى قبيل صلاة المغرب وبعيده وحيث تنتظم حلقات الطلبة بشكل دائرى حول الأستاذ وهو على منصته، وقد تمتلئ الدائرة بحيث لا يبقى فراغ فى داخلها فيبلغ عدد حضورها أحيانًا نحو ثلثمائة طالب قد يكون من بينهم الأساتذة، وربما تشترك معهم الطالبات كما حدث فى حلقة درس الإمام الجوينى فى نظامية نيسابور[1].

وتدلنا الأساليب الباقية لتلك الحلقات أن الطلبة كانوا أحرارًا فى اختيار أساتذة المادة التى يرغبون التخصّص فيها وأن اختيارهم هذا كان موفقًا ومجديًا، وأن المناقشة والجدل وبخاصة فى مسائل الخلاف من أهم الوسائل التعليمية آنذاك. وأن الطلبة كانوا أحرارًا فى مناقشتهم على ألاّ تتعدى حدود الآداب المألوفة حتى ألّف المعنيون بالتربية وأصول التدريس كتبًا فيها[2]. وكانت

(١) ابن عساكر ـ التبيين ص ٢٨١.

(٢) مثل: تعليم المتعلم طريقة التعلّم ـ برهان الإسلام الزرنوجى المتوفى سنة ٦٠٠ هـ لابن عبد البر.

المحاضرات يتخللها الدعابات والنوادر بحيث اتخذ الأساتذة من الشيخ أبى إسحق الشيرازى مثالاً على ذلك[1].

وقد وصف لنا ابن جبير فى رحلته درسين كان ألقاهما الإمام رضى الدين القزوينى فى نظامية بغداد فى صفر من سنة ٥٨٠هـ، وهما وإن كانا مجلسين فى الوعظ والتذكير إلاّ أنهما يصوّران كيف يبدأ درس التفسير مثلاً ثم كيف تدور المناقشات وتعرض الأسئلة، وأن قسطًا منها يكتب على رقاع تقدم إليه يمسكها بيده ويجيب على كل واحد منها بعد ختام محاضرته بمثل ما تنتهى المحاضرات العامة اليوم، ثم يتفرق الجمع بعد نزوله عن المنبر[2].

التخصصّ الضيق :

وما كنّا نشهد فى تلك الموضوعات الدراسية هذا التخصص الضيّق الذى نعانى نقائصه كما ننعم بمزاياه اليوم فلم نجد النحوى يومذاك على تضلعه فى نحو سيبويه والكسائى والفراء مقتصراً عليه، وإنما يتحدث ويناقش فى مسائل التشريع والكلام والطبيعة والرياضيات والتاريخ والآداب كأنه من المختصين أو المبرزين فيه، وإن الموسوعات التى وصلتنا فى مختلف الموضوعات لتشهد بذلك حيث يتلقى الطالب فى مستهل حياته الدراسية محفوظات من آى القرآن الكريم ثم قواعد النحو والبلاغة والتاريخ ومبادئ الحساب والهندسة والآداب، ثم يتدرج فيلمّ بهذه ويضيف إليها العلوم الفلسفية والطبيعة وما وراءها، فلا يبلغ مرحلة التخرج والإجازة حتى يكون قد أخذ من كل شىء أحسنه.

وكانت مسألة الاختصاص على حساب الموضوعات الأخرى من مسائل الخلاف فى هذا العصر، وكان ممن تحدث عنها «أبوبكر بن المعافرى» فى عواصمه فقال : ولا يقل أحد متى أحصلّ هذا ـ أى المشمول ـ فإنه ليس المطلوب منها الغاية، وإنما ينبغى لكل عاقل أن يتخصّص بجزء منها ولايفرد نفسه ببعض العلوم فيكون إنسانًا فى الذى يعلم، بهيمًا فيما لا يعلم.. ولا يصح إلى من

(١) الذهبى- سير أعلام النبلاء جـ ١١ ص ٥١٤.

(٢) ابن جبير ـ الرحلة ص ١٩٧ ، ١٩٨.

يقول له: فكن مقصّرًا فى كل علم إذا فعلت هذا والأولى بك أن تقف نفسك على علم واحد فإنه قول جاهل بالعلم؛ لأن المشاركة ممكنة والإحاطة بعلم واحد غير ممكنة.. فلا يستطيع «سيبويه» ولا الفارسى إحاطته بالنحو على الرغم من تخصّصهما فيه، وقد أفسد تخصصهما كثيرًا من نحوهما[1].. ولأن العلم والأدب يترابطان بصفاتهما المشتركة وأغراضهما فى الحياة ولأن فروع العلم وفنون الأدب تتصل بوشائج من الأشباه كاتصال العقل بالقلب والتفكير بالعاطفة، والعالِم فى نظرهم ما تثقّف عقله وتهذّب قلبه.

وقد منح الأستاذ فى النظامية استقلالاً وحرية ضمن حدود معينة كما تفرضها عليه النظم الجامعية اليوم، فهو لا يدرّس عادة إلاّ المادة التى تخصص واشتهر بها وله أن يختار الطريقة التى يفضلّها لإلقاء محاضراته، وكان الطلاّب يفاضلون بين الأساتذة بموجبها، حتى حكى عن أبى الفتح المقدسى أنه قال «صحبت إمام الحرمين الجوينى ثم قدمت العراق فصحبت الشيرازى فكانت طريقته عندى أفضل من طريقة أبى المعالى»[2].

كما لم يخضع لرقابة المحتسب مثلما يخضع المدرس فى المدارس التى تمهّد للدراسة بها، إذ كان التعليم فى موضوعات بسيطة معينة وطرائق تدريسه للصغار تحت إشرافه لأن منها ما يكون نقلهم عنها بعد الكبر عسيرًا فيضع من قصّر وأساء فى التصدى لما يفسد به النفوس[3]. على أننا لم نجد مثل هذا الحق فى التفتيش على النظاميات وأساتذتها.

القبول والتخرج:

وكان التعليم من قبل مقصوراً على أبناء الأثرياء والكبراء لأنه يتطلب سعة فى المال وشهرة فى الجاه ففتح «النظام» أبواب نظامياته للنابهين إذا أنس فيهم

(١) المعافرى أبو بكر: العواصم من القواصم جـ ٢ ص ٢١١ ، ٢١٢.

(٢) طبقات جـ ٤ ص ٢٨.

(٣) الماوردى - الأحكام السلطانية ص ٢٢١.

حدة من ذكاء والراغبين فى العلم إذا لمس منهم إقبالاً عليه، وضمن لهم عيشًا رغدًا لا يقل عن مستوى طلبة الجامعات فى العصر الحديث وأتاح لهم حياة كريمة ينظرها الخواص والعوام بعين التجلّة والاحترام.

وكانت النظاميات تستقبل كل طارق، دون التقيّد بعدد الطلاّب مثل ما اتخذ مبدأ التحديد فى المستنصرية، أو توافر شروط الشافعية فى الدارسين كما التزم فى المدرسين، ولئن صحّ هذا كان معناه أن التعليم العالى كان حرّا لجميع المواطنين ممن يحملون مؤهلات التعلّم ويرغبون فى مواصلة الدراسة، وكان على المدرسة أن تهيئ للطالب عند قبوله ما يلزمه من سكن وما يقتضيه من حاجات كما توفر له أربعة أرطال من الخبز فى اليوم(١).

وليس هناك سنّ محددة للقبول فى هذه المدارس فقد يدخلها الطالب وهو ابن الثلاثين أو أكثر إلاّ أنه لا يقل عن العشرين فى العادة حيث قضاها فى التعلم بين المسجد والكتاتيب، فإذا انتمى لإحدى النظاميات وانتظم فى سلك طلبتها وتلقى دروسها فليس هناك سنّ معينة تمنع من سماعها فقد يحضرها وهو فى سنّ الثمانين(٢). وليس هناك وقت محدد للمدّة التى يستغرقها الدرس أو عدد الدروس اليومية فقد يستمر ساعة أو اثنتين وقد يكون هناك درسان فى اليوم أحدهما قبل الظهر والثانى بالعشى.

وثالث الأشياء الحرّة فى هذه المدارس هى مدّة الدراسة إلاّ أن نصّا ذكره لنا ابن الجوزى فى ثنايا ترجمته ـ لأبى على الفارقى ـ أحد تلاميذ ـ أبى إسحق الشيرازى يمكننا الاستنتاج منه بأن أقل زمن يصل فيه الطالب مرحلة الاعتماد على نفسه والاستغناء عن الجلوس بين يدى أستاذه هى أربع سنوات(٣).

---

(١) ابن الجوزى: المنتظم ٨/ ٢٤٦.

(٢) انظر: طبقات السبكى ـ ترجمة عبد الله بن على بن عوف جـ ٣ ص ٢٠٧.

(٣) المصدر السابق وترجمة الفارقى جـ ٤ ص ٢٠٩، وابن الجوزى ـ المنتظم- حوادث سنة ٥٢٨هـ.

الإجـازة: (شهادة التخرّج)

هى الوثيقة المدرسية وكان الاستماع للمحاضرات من شرائطها، لأنها لاتفى بالقصد من الدراسة والغرض من التعلم إذا لم يصحبها حضور، وهذا ما علّل به ـ الماوردى ـ عدم صحة حمل الإجازة والرواية بها فقال: ولو جازت لبطلت الرحلة[١]. وقد يمنح الطالب عدة شهادات من شيوخ متعددين وطريقة الحصول عليها فى العادة يكون بناء على طلب يتقدم به لمدرسه بعد أن ينهى دراسته. وقد أصبحت هذه ضرورة بعد تأسيس النظاميات وانتشار المدارس.

فإذا نال إجازته فقد أصبح مهيأ لأن يشغل أحد مناصب القضاء، أو الافتاء، أو التدريس، أو المناظرة، وقد يحظى بأكثرمن واحدة منها فيكون قاضيًا ومفتيًا ومدرسًا فى آن واحد، أو أن يكون حرّا فيعمل ليكون محدثًا أو متكلمًا، أو واعظًا أو خطيبًا فى أحد المساجد[٢].

المدارس الأهلية قبيل النظاميات :

لقد انتهى القرن الرابع الهجرى حيث كان الناس يتلقون العلم فى المسجد والبيت والسفر والحضر[٣]، إلى حيث تلك المعاهد النادرة، ولم يطلع القرن الخامس حتى انتشرت المدارس الأهلية فى عواصم الأقاليم الشرقية ففى «غزنة» عاصمة آل سبكتكين فى سجستان بنى السلطان «محمود» مدرسة إلى جانب جامعها يصفها لنا ـ العتبى ـ بأنها فيحاء تشتمل بيوتها من بساط الأرض إلى مناط السقوف على تصانيف الأئمة الماضين. يتناوبها فقهاء دار الملك وعلماؤها للتدريس والنظر فى علوم الدين. على كفاية ذوى الحاجة منهم بما يهمهم جراية وافرة ومعيشة حاضرة[٤].

وفى نيسابور عاصمة خراسان بنى أبو إسحاق الإسفرايني مدرسة قال عنها السبكى: إنها لم يبن بنيسابور قبلها مثلها ودرس فيها إلى أن مات سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م[٥]. ومدرسة بناها الأمير ـ نصر بن سبكتكين ـ حينما كان

(١) طبقات الشافعية لابن الصلاح – اختصار النووى ورقة ٧٥.
(٢) د: عبد الله الفياض: الإجازات العلمية.
(٣) السبكى – الطبقات جـ ٣ ص ١٣٥.
(٤) العتيبى ـ كتاب اليمنى جـ ٢ ص ٢٩٠ ـ ٢٠٠.
(٥) السبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ١٣٥.

واليًا على نيسابوْر وسمّاها السعدية، وكانت من بينها المدرسة البيهقية قبل أن يولد «النظام»[1]، وفى بيهق كما ذكر ـ ابن فندن ـ وهو من أبنائها الذين أرّخوا لها بعد «النظام» بأقل من قرن: كان قد بنى «أبو القاسم على بن محمد الحسين بن عمرو من أثرياء قصبة سبزوار مدرسة للمفسر «على بن عبد اللّه بن أحمد» النيسابورى فى محلّة أسفريس فى رمضان سنة ٤١٨هـ، وآثارها ـ إلى عهد المؤلف ـ باقية[2]، ثم قال فى ترجمة هذا الثرى أنه بنى أربع مدارس للطوائف الأربع قبل سنة ٤١٤هـ[3]، وفى «مرو» أنشأ أبو حاتم البستى المتوفى سنة ٤٢٠هـ مدرسة ألحق بها مكتبةً ومسكنًا للطلبة الغرباء بالمجان ورتّب لهم معاشًا[4]..

وفى بغداد كان للشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦هـ طلاب ومدرسة يجرى عليها وعليهم الأرزاق، وقد يبلغ راتب طالبها اثنى عشر دينارًا أو ثمانية دنانير كل شهر، وأن بعض الفقراء من غير المسلمين كان يدرّس عليه علم الفلك بقصد التوفر على هذا الراتب، كما أوقف قرية على كافة الفقراء[5].

وجاء «النظام» فوجد أمامه هذه النماذج العديدة من المدارس، ورأى الفاطميين قد سبقوه إلى تشييد الأزهر والاعتماد عليه فى دعوتهم ودراسة مذهبهم فكانت هذه مصادر إيحاء وتحفّز للقيام بإنشاء مجموعة من المدارس وليست مدرسة واحدة لتشارك المجاهدين فى حربهم ضد المبتدعين بنفس السلاح...

وعلى هذا يبدو لنا أنه ليس ـ النظام ـ أول من بنى المدارس فى الإسلام وليست نظامية بغداد أولاها على وجه الإطلاق، فإن النصوص التى تؤرّخ لنظامية أصبهان يمكننا أن نستنتج منها بأنها أقدم المدارس النظامية، وأن النقول التى عرضناها تدل على وجود نظائر لها سبقتها. أمّا أوجه الأولوية فى

(١) السبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ١٣٧..
(٢) ابن فندن ـ تاريخ بيهق ص ١٧٥.
(٣) ابن فندن ـ تاريخ بيهق ص ١٩٤.
(٤) أسعد طلس ـ نظامية بغداد ص ١٣.
(٥) عبد الرزاق محيى الدين - أدب المرتضى ص ٦٨ عن روضات الجنات جـ ٢ ص ٣٨٣.

نظاميات الوزير فليس لأنها انفصلت عن الجامع والمسجد فى طراز بنائها ومنهاج دراستها وفرض الجرايات والمعاليم لأساتذتها وتلامذتها، وإنما لأنها ـ كما نرى ـ جماع ذلك فضلاً عن أن الحكومة هى المشرفة عليها، والتى تقوم بتوظيف معظم الطلبة الممتازين من متخرجيها. . وكانت نظامية بغداد واسطة العقد فى تلك السلسلة من المدارس النظامية، وأكثرها ذيوعًا وأبعدها صيتًا وشيوعًا، وإن لم تكن أقدمها إنشاءً وعمارة؛ لأنها فى عاصمة الخلافة العباسية، وتضم بين جدرانها أفضل العلماء وخيرة الطلاّب، لذلك يحسن بنا عرض هذه المجموعة حسب أهميتها وشهرتها:

١ - نظامية بغداد:

إن معهدًا يعتبر البذرة الأولى للدراسات العليا المنظّمة فى الجانب الشرقى من العالم الإسلامى، والذى امتد عمره خمسة قرون تقريبًا وظهرت آثاره فى طراز البناء ومناهج التدريس واضحة على المدارس التى شيّدت بعد إنشائه، والذى أثار أساتذته ومتخرجوه ضجّة علمية ودينية اجتاز صداها حدود الخلافة ومملكة آل سلجوق إلى أقصى بلاد المغرب لجدير بالدراسة التفصيلية من جميع نواحيه، لذلك ظفر بعناية الباحثين بشكل لم نعهده فى تاريخ معهد آخر[١]. . والذى يعنينا ـ نحن ـ ما يكشف لنا عن الغرض من تأسيسه، والقصد من مناهج الدرس فيه، وهذا ما أشرنا إليه من قبل فلم يبق علينا إلاّ أن نتعرض نواحيه الأخرى كما يقتضيها منهج البحث.

لقد قيل فى أسباب بنائها ـ وصاحب هذه المقولة من معاصرى «النظام» ومات بعد اغتياله، بخمسة وثلاثين عامًا أى سنة ٥٢٠هـ ـ: إن الشيخ «أبا سعيد» الصوفى زار «النظام» يومًا وقال له: «أريد أن أؤسّس فى مدينة السلام مدرسة تخلّد ذكرك إلى يوم القيامة، فوافق «النظام» على ذلك وأصدر أمرًا إلى العمال بصرف المبالغ اللازمة».

---

(١) انظر: أسعد طلس ـ نظامية بغداد (رسالة نال بها المؤلف إجازة الدكتوراه من جامعة باريس).

ويحكى صاحب هذه المقالة: «أن أبا سعيد (القاشى) بعد أن وكّل إليه «النظام» بناء المدرسة ابتاع بقعة على شاطئ دجلة وخطّ المدرسة النظامية وبناها أحسن بنيان وكتب عليها اسم «نظام الملك»، وبنى حولها أسواقًا تكون محبوسة عليها وابتاع ضياعًا وخانات وحمامات وأوقفت عليها، فكملت بذلك لـ«نظام الملك» الرياسة والسؤدد.. وكان ذلك فى سنّى عشر الخمسين وأربعمائة من الهجرة.. ثم رفع حساب النفقات فبلغ ستين ألف دينار»[1]. ويتم صاحب هذه الحكاية روايته: «بأن (النظام) استكثر المبلغ وطلب منه كشفًا مفصّلاً بذلك إذ طرق سمعه أن جميع المصروف على البنيان لا يزيد على تسعة عشر ألفًا وأن بقية الأموال احتجبها الوكيل لنفسه.. ثم أذن بصرفه حينما سمع منه أنه سيقدّم له المبلغ ويسجّل المدرسة باسم الخليفة القائم»[2].. وبنى «أبو سعيد» بتلك الأموال الرباطات للصوفية واشترى الضياع والخانات والبساتين والدور وأوقف جميع ذلك عليهم.

ولسنا ندرى كيف يسوغ لأبى سعيد الصوفى أن يحتجز من أموال الدولة العامة أو الخاصة بالوزير وهو الزاهد المتصوّف، ولسنا ندرى كيف يسيغ ذلك الطرطوشى فيطرى هذه القصة ويثنى على صاحبها أيّما ثناء حتى ليقول: «وفى مثل هذا فليتنافس المتنافسون، ولمثل هذا فليعمل العاملون، فإن فيها عزّ الدنيا وشرف الآخرة»[3].. وليس لكل ذلك من مبرّر ـ كما أظنّ ـ إلاّ أنها كانت من أجل الخير العام، وفى سبيل طائفة الصوفية بالذات، وليس هو بالمبرر المشروع.

ومهما قيل من أسباب فى إنشاء «النظام» لمدارسه ونظامية بغداد خاصة فقد غضّ «النظام» طرفه عن هذه الاختلاسة، وعفا عن مرتكبها دون تدقيق ولا محاسبة، لأنه كان يرمى من وراء ذلك إلى شىء أعظم وأجلّ من المال إذ

(١) أبو بكر الطرطوشى ـ سراج الملوك ص ٢٣٩.

(٢) ابن أبى الدم ـ تاريخ المظفرى ورقة ٤٢٥ – حوادث سنة ٤٥٧هـ.

(٣) سراج الملوك ص ٢٤٠.

كانت المدرسة من أهدافه العظام وأمانيه الجسام لتضم بين جدرانها جمع العلماء المثقّف وتجمع شملهم المتفرّق وتجعل منهم صفًا واحدًا أمام المبادئ الخبيثة التى تهدّد كيان الدولة، فلم ير نفرًا من رجال العلم، أو يسمع قولة ـ أبى سعيد ـ حتى انتهزها فرصة ليهيئ لهم الجو الذى يمكّنهم من تفنيد مزاعمهم الهدّامة.

وقبل أن ننتقل إلى ناحية أخرى من نواحيها يحسن بنا أن نشير إلى ما استفدناه من هذا النص عدا ما تقدم ذكره:

أ ـ أنها لم تشتهر بعد باسم المدارس النظامية حتى عام تأليف ذلك الكتاب.

ب ـ أنها تقع على شاطئ دجلة مباشرة وليست بعيدة عنه قرب الباب المشهور بباب الأزج.

جـ ـ أن تكاليف بنائها بلغت ستين ألفًا[1] وليست مائتى ألف دينار ـ كما نقل غيره عن غزالى نامه[2] ـ خلافًا لأغلبية المؤرخين.

أمّا تاريخ تأسيسها، فالمعروف لدى رجال السير والتاريخ أنه بدئ فى بنائها عام ٤٥٧هـ وانتهى فى عام ٤٥٩هـ[3]، وبذلك يكون تأسيسها فى سنى عشر الستين وأربعمائة من الهجرة، وليس كما يزعم «الطرطوشى» فى سنى عشر الخمسين وأربعمائة، ولعل خطأ النسّاخ هو الذى أوقع فيه الناشر للكتاب.

تسميتها:

ولسنا نعرف بالضبط متى أطلق عليها ومن أول من سمّاها «بالمدرسة النظامية» وإن كان هناك من النصوص ما يصرّح بأن اسم الخواجة ـ نظام الملك ـ نقش على العمارة بعد إتمامها[4]، غير أن «أبا بكر المعافرى» الذى رحل من

(١) ابن أبى الدم ـ تاريخ المظفرى، ورقة ٤٢٥ ـ مجلة المجمع العلمى والعراقى جـ ١/١٤٥ - سنة ١٩٥٤م- الترجمة.

(٢) المتنبى وسعدى ص ٨٣ عن غزالى نامه لهمائى ص ١٣٠.

(٣) المنتظم- حوادث سنة ٤٥٧هـ جـ ٨ ص ٢٣٨، وحوادث سنة ٤٥٩هـ جـ ٨ ص ٢٤٦، والكامل جـ ١٠ ص ٢٠ نفس العام، وغيرهما.

(٤) الطرطوشى ـ سراج الملوك ص ٢٣٩.

المغرب إلى بغداد ليلتحق بنظاميتها ووصل إليها بعد مقتل «النظام» بخمسة أعوام، وقابل الإمام الغزالى فيها سنة ٤٩٠هـ، ثم كتب رحلته هذه ومشاهداته، أطلق عليها ـ اسم مدرسة السلام ـ على الرغم من ثنائه العاطر على مؤسسها، وإشادته بالدور العلمى الذى قامت به فقال: «ولقد فاوضت فيها ـ أبا حامد الغزالى حين لقائى له بمدرسة السلام فى جمادى الآخرة سنة ٤٩٠هـ وقد راض نفسه بالطريقة الصوفية من سنة ٤٨٦هـ إلى ذلك الوقت نحو خمسة أعوام»[١].

وليس ببعيد أن إطلاق اسم النظامية على هذه المجموعة من المدارس ومنها نظامية بغداد إنما كان بعد القرن الخامس، وحينما بدأ المؤرخون فى الكتابة عنها والتمييز بينها وبين غيرها من المدارس التى انتشرت حينذاك فى معظم الولايات.

موقعها:

ولئن صحّ ما قيل من حكاية «أبى سعيد الصوفى» كما نقلها الطرطوشى فليس «للنظام» حينئذ رأى فى اختيار موقعها ولا فى طراز بنائها أو تحديد مساحتها، كما لم نجد بين النصوص ما يشير إلى مساهمته فى ذلك عدا ما يتصل بمواد البناء ومناقشته له فيه. فقد حكى لنا هندوشاه فى «تجاربه» بعد سرده لتلك الحكاية السالفة أنه قال له: كنت أريد أن تكون النظامية مُحكمة البناء مثل جامع المنصور وبيمارستان عضد الدولة فقد سمعت أنهما جعلا لكل آجّرة زنبيلاً من الجير، وقد بلغنى أنك جعلت واجهة البناء من الآجر المنقوش وأخاف أن ينقضّ سريعًا»[٢].

---

(١) العواصم من القواصم جـ ١ ص ٢٠، والذى عليه أغلب المراجع العربية أنه ترك المدرسة سنة ٤٨٨هـ، ومن أشار إلى هذا اللقاء فقد أرجعه إلى الشام وأنه قصد مناظرته فقال له: هذا شىء تركناه لصبية فى العراق يعنى المغالبة بالعلم والمفاخرة به. (مرآة الجنان لليافعى جـ ٣ ص ٢٢٧).

(٢) تجارب السلف هندوشاه ص ٥.

لقد اختار الشيخ أبو سعيد لعمارتها مكانًا فى الجانب الشرقى مازال حتى اليوم يعّد من أرقى محلات بغداد وأحـــنها فقد حدّد لها قطعة من الأرض تطل على دجلة. وفى ذى الحجة سنة ٤٥٧هـ (أكتوبر سنة ١٠٦٥م) شرع فى بنائها واستمر العمل متواصلاً سنتين إلى أن انتهى منها فى يوم السبت ١٠ من شهر ذى القعدة سنة ٤٥٩هـ (٤ سبتمبر سنة ١٠٦٧م)[١].

ثمّ عفت السنون المتعاقبة على أطلالها فلم تبق لنا منها ما يدلنا على موقعها، ولم يردنا من النصوص الثابتة الواضحة ما يحدد لنا موضعها. . وبهذا أصبحت مثار خلاف للباحثين، فقد ظنّها ـ الألوسى ـ فى محلة اليهود التى تسمى «بباب الأغا»[٢] مستدلاً على مكانها بما بقى من مئذنتها. وهى منارة تقع فى زقاق سمىّ بها، أو بدرب محمود أبو الحسن، وقد شاركه الرأى ـ العزّاوى ـ من مؤرّخى العراق المحدثين[٣].

ولم يصل ـ أسعد طلس ـ فى رسالته عن نظامية بغداد إلى نتيجة حاسمة سوى قوله: «وبالاختصار يمكننا التأكيد بأنه لم يبق اليوم أى أثر للنظامية وأنها كانت فى سوق الثلاثاء»[٤]، إلاّ أن المرحوم «مصطفى جواد» ـ البحاثة الخططى المشهور- يرى أن هذه المنارة ربما تكون بقايا مئذنة المدرسة الإمامية نسبة إلى الخواجا إمام الدين الأفنخارى القزوينى وهى فى درب ـ فراشا ـ شرقى بغداد[٥]، وأن النظامية تقع فى موضع سوق الخفافين اليوم قبال رباط شيخ الشيوخ ـ أبى سعد النيسابورى ـ الذى حلّ بمكانه الخان المعروف بخان «الباججى» بجوار جامع الخفافين فى سوق الكمرك العتيق على دجلة[٦].

---

(١) المنتظم، ومرآة الزمان، وابن الأثير – حوادث سنة ٤٥٩هـ.

(٢) وتسمى اليوم المنارة المقطومة أى المقطوعة، وبينها وبين جامع مرجان نحو ثمانين خطوة (مساجد بغداد الأثرية ص ١٠٥. الهامش للأثرى).

(٣) العراق بين احتلالين جـ ٢ ص ٨٦.

(٤) أسعد طلس ـ نظامية بغداد.

(٥) كما فى نكت الهيمان ص ٢٠٣، والحوادث الجامعة ص ٥٠٤.

(٦) ابن الدبيثى ـ المختصر المحتاج جـ ١ ص ٥٢ الهامش.

وهو رأى صرّح لى به أثناء تجوالنا مرة لاستكشاف موقع النظامية فاجتزنا عدة أسواق منها سوق الميدان ثم بسوق العطر والمخلّطين أى البزازين فقال: «إنها الفروع التى تتصل بشمال سوق الثلاثاء العتيقة وجنوبه، ولمّا أسّست النظامية بنى لها سوق هو سوق الكمرك الآن، ثم بنيت المستنصرية فاتصل سوقها بسوق النظامية، فسوق الثلاثاء اليوم وهو سوق الحيدرخانة من باب الأغا».

وهو رأى وجيه لأن الثابت من أقوال الرحّالة ابن جبيرو «ابن بطوطه» وغيره من المؤرخين أنها تقع على شاطئ دجلة فى وسط سوق الثلاثاء[1]. ولأن المنارة السالفة الذكر تبعد عن شاطئ النهر بما لا يقل عن خمسمائة متر، فلا يصحّ أن تكون من آثار النظامية الدّالة على موقعها.

وهو رأى على وجاهته لايمكننا التثبت منه مادامت المدرسة فسيحة حيث ابتاع لبنائها ـ أبو سعد ـ بقية الدور الشاطئيه بمشرعة الزوايا والفرضة وباب الشعير ودرب الزعفرانى[2]. ومادامت تحتوى على محال للدروس والمذاكرة ومصلّى يسع الألوف وأماكن الجلوس للأساتذة، ومخازن للأدوات، وحُجَر وبيوت – للسكن كما سنرى وصفها فيما يأتى:

وصفها:

لقد كانت نظامية بغداد نموذجًا راقيًا بنيت على نمطه المدارس التى أنشئت فى عهدها أو قبيل خرابها. وقد قدّر لبعض هذه المدارس التى شيّدت على غرارها أن تبقى بمنزلة العلائم التى ترشدنا إلى ما نريد فى هندسة بنائها كما كانت إمارة فى تحديد مكانها، ومن أهم تلك المدارس وأشهرها ـ المستنصرية ـ التى أفرغت على قالبها وحيكت على منوالها وصيغت على مثالها ولكن فاتها الشنب على رأى المثل[3].

(١) ابن بطوطة ص ١٣١، والسبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ٨٨ ـ ٩٨.

(٢) المنتظم جـ ٨ ص ٢٣٨ ، والسبط – مرآة الزمان– حوادث سنة ٤٥٧هـ.

(٣) الألوسى – مساجد بغداد وآثارها ص ١٠٢.

بهذه العبارة الموجزة ذات الأسجاع الثلاث يبدأ الألوسى وصفه لنظامية بغداد، ثم يستمر فى الوصف فيقول: كانت مستطيلة البناء متناسقة الزوايا والأرجاء فيها محل واسع للدروس وآخر مثله معدّ للمذاكرة ولترويح النفوس، ومصلاّها يسع من المصلين الألوف وفيها مواضع لرؤساء العلم والمدرسين وأقنية للذخائر وأدوات الطباخين.

وكانت تشتمل على طبقتين من البناء وفيها من الحُجَر والبيوت عدد كثير، مرفوعة الجدران مشيّدة الأركان، عقد فى جوانبها طاقات مستديرة الشكل تنتهى إلى ذلك البنيان المشيّد، وقد فرشت ساحتها بالمرمر وسورها مؤزر بمثله[1].

لقد استقى ـ الألوسى ـ وصفه من المستنصرية[2]، والمدرسة والجامع اللذين أمر ببنائهما الأمير ـ مرجان بن عبد اللّه ـ سنة ٧٥٨هـ بنفس تصميم النظامية، حيث لا يوجد لدينا وثيقة أخرى تصفها لنا غير ما جاء بكتابه، ومن محاسن الأقدار أن تبقى المستنصرية وتبقى مدرسة مرجان وأن نرى الوصف الذى جاء به الألوسى منطبقًا إلى حد ما معهما.

افتتاحها وأشهر أساتيذها:

لقد كان صباح يوم السبت الواقع فى ١٠ من ذى القعدة سنة ٤٥٩هـ (١٠٦٧م) من غرر الأيام التى شهدتها بغداد لتكريم العلم فى شخصيات العلماء بمناسبة افتتاح نظامية بغداد، فقد أقيم حفل رائع حضره كبار رجال الدولة والأشراف والوجهاء، وسكان المدينة حتى امتلأ فناء المدرسة والمحلات المجاورة[3]، وأخذ الجمع يزداد كلّما ارتفع النهار إلى أن حان الموعد ولم يحضر

(١) المصدر السابق ص ١٠٤، ١٠٥.

(٢) المستنصرية ـ نسبة إلى مؤسسها الخليفة المستنصر باللّه بن الناصر، وكان يدرّس بها المذاهب الأربعة ولكل مذهب ديوان، وفيه موضع التدريس وجلوس المدرس فى قبة خشب صغيرة على كرسى عليه البسط يقصده المدرس لابسًا ثياب السواد معتمًا وعلى يمينه ويساره معبدان (ابن بطوطة جـ ١ ص ١٤١).

(٣) ابن الأثير ـ الكامل جـ ٨.

الشيخ ـ أبو إسحق ـ الشيرازى الذى بنيت المدرسة برسمه[1]، وتساءل الناس عن سبب تأخره. فقيل إن صبيًا قابله فى الطريق وهو آتٍ لالقاء محاضرته الأولي وقال له: «كيف تدرّس فى مكان مغصوب[2]؟». . فعاد من حيث أتى، ولم يجد العميد ـ أبو سعد الفاشى بدّا من تكليف «أبى نصر بن الصباغ» صاحب «الشامل والكامل» لكيلا ينفض الاجتماع من غير درس يسمعونه، وضمن له الشيخ أبو منصور بن يوسف المشرف على البناء ألاّ يعدل عنه ولا يمكّن «أبا إسحق» من الإفساد عليه، فوافق عليه وألقى محاضرته وجرت مناظرته[3]، ولكن المصادر تجمع على أن الخبر لم يصل إلى مسامع «النظام» حتى أقام القيامة على الشيخ، وطلب منه أن يلحّ على ـ الشيرازى ـ بالتدريس فيها، وأذعن الشيخ لضغط الوزير والخليفة والعميد جميعًا وخشى – أبو إسحق الشيرازى – فتور تلامذته إذا بقى على تمنعه.

وبعد عشرين يومًا من تعيين سلفه ذهب إلى المدرسة وجلس فيها يوم السبت غرّة ذى الحجة من العام نفسه، غير أنه كان إذا حلّ موعد الصلاة أدّاها فى مكان آخر خارج المدرسة. . ولعل فى شعور «النظام» بحرج الموقف إذا انتشرت دعوى الاغتصاب. . . إلخ ما دفع به للإصرار عليه بأن يقبل التدريس فيها فضلاً عن منزلته العلمية، واحترامه لـه.

وقضى أبو إسحق سبعة عشر عامًا بالنظامية، وصنّف لتلامذته «التنبيه» و«المهذّب» فى الفقه و«النكت» فى مسائل الخلاف، واللمع وشرحه، و «التبصرة» فى أصول الفقه، و «الملخص»، و «المعونة» فى الجدل، وطبقات الفقهاء وغيرها[4] وتخرّج على يديه عشرات بل مئات الطلاب حتى روى أنه قال: ما دخلت قرية أو بلدة فى خراسان إلاّ وكان قاضيها أو مفتيها أو خطيبها

(١) ابن خلكان- الوفيات جـ ٢/ ٣٨٦ ـ القاهرة سنة ١٩٤٨م.

(٢) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ٤٨ ـ حوادث سنة ٤٥٩هـ.

(٣) سبط بن الجوزى ـ حوادث سنة ٤٥٩هـ.

(٤) السبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ٨٨-٩٨، وابن خلكان جـ ١ ص ٩.

تلميذى أو صاحبى[١]. . وكان من أشهر هؤلاء: أبو على الفارقى، المتوفى سنة ٤٢٨هـ[٢]، وأبو القاسم العكبرى المتوفى سنة ٥١٦هـ صاحب الانتصار فى مشكل القرآن[٣]، وأبو العباس الجرجانى المتوفى سنة ٤٨٢هـ صاحب الشافى والتحرير وكتاب الأدباء[٤]، وأبو الحسن بن أبى الصقر الواسطى الأديب[٥] المتوفى سنة ٤٩٢هـ، وعبد الله بن إبراهيم الخبرى المتوفى سنة ٤٧٦هـ صاحب شرح الحماسة وعدة دواوين كالبحترى والمتنبى وغيرهم[٦]، وأبو الحسن على ابن سعيد العبدرى المتوفى سنة ٤٩٣هـ صاحب مختصر الكتابة فى خلافات العلماء[٧]، وأبو بكر أحمد بن على الحلوانى المتوفى سنة ٥٠٧ هـ، ومن تصانيفه ـ لطائف المعارف[٨] ـ وأبو الفتح المقدسى المتوفى سنة ٤٩٣ هـ صاحب التصانيف المعروفة، والحريرى البصرى صاحب المقامات المشهورة[٩]، وأبو العز محمد بن على بن بندار المعروف بالقلانسى[١٠] المتوفى سنة ٥٢١هـ وغيرهم كثيرون. . منهم: الشاشى فخر الإسلام أبو بكر محمد بن أحمد ـ درس فى النظامية معيدًا للشيرازى ثم أستاذا منذ عام ٥٠٢ هـ حتى توفى سنة ٥٠٧هـ.

ومما يلفت النظر عند مراجعة تراجم هؤلاء المتخرجين أنهم جميعًا إلاّ ما قلّ منهم قد تولّوا مناصب القضاء فى الدولة فى مدن الأقاليم المختلفة، مما يدلّنا على أن النظامية «بعد قليل من الوقت» أصبحت تمدّ الدولة بالموظفين الفنيين، وأن الدولة أصبحت تعتمد فى وظائفها على ذوى الإجازات المدرسية العالية لاسيما المتخرجين منها. . وكذلك كانت مما تعنى به هذه المدرسة اختيار أفضل العلماء لتوجيه الطلاب وتثقيفهم، وكان «النظام» على رأس هذه الدولة هو الذى يعرف كيف ينبغى اختيارهم وعلى يديه أو من ينيبه عنه يتم تعيينهم. .

---

(١) المرجع السابق.

(٢، ٣) السبكى جـ ٤ ص ٩٦، ٢٠٩، ٢٣٦.

(٤، ٥، ٦، ٧) السبكى جـ ٤ ص ٩٦، ٢٠٩، ٢٣٦.

(٨، ٩، ١٠) طبقات السبكى جـ ٤ ص ٢٨، ٦٧، ٢٩٨.

ومن أجل ذلك فانه لم يتوف الشيخ ـ أبو إسحق الشيرازى ـ سنة ٤٧٦هـ حتى أغلقت المدرسة وجلس للعزاء به ثلاثة أيام وعيّن «مؤيد الملك بن النظام» بعدها مباشرة- وكان يومذاك ببغداد الشيخ أبا سعد بن أبى سعيد المتولى النيسابورى. ولمّا سمع «النظام» بذلك لم يجد فى ذلك العزاء ما يليق ومنزلة الشيخ الراحل فقال: «لو أغلقت المدرسة سنة حدادًا عليه»، كما لم يرض بهذا التعيين وطلب ـ أبا نصر بن الصباغ ـ مدرس النظامية الأسبق مكانه[١]، لأنه أجدر بها وأكفأ منه... وقد كان هذا من أنداد الشيرازى وإليه كانت رحلة الطلاّب فى المتفق من المسائل والمختلف، وله من المؤلفات: الشامل، والكامل، وعدّة العالم، والطريق السالم وكفاية السائل وغيرها[٢]. وقبل أن يكمل عامًا فى التدريس صرف سنة ٤٧٧هـ وهو العام الذى توفى فيه وأعيد تعيين سلفه ـ ابن المتولى ـ وله كتاب «التتمة» على إبانة شيخه ـ الفورانى ـ و «مختصر الفرائض» وكتاب فى الخلاف وآخر فى أصول الدين واستمر فى التدريس إلى حين وفاته فى ١٨ شوال سنة ٤٧٨هـ[٣].

وبقى هذا الكرسى شاغرًا بضعة شهور إلى أن: «قدم بغداد فى تجمّل عظيم لم ير مثله لفقيه»[٤] ـ أبو القاسم على بن أبى يعلى المظفّر محمد العلوى الحسينى الدبوسى ـ فى جمادى الأولى من سنة ٤٧٩هـ، وبدأ التدريس فى مستهل جمادى الآخرة.. وأغلب الظن أن سبب تعيينه كان بعد نجاحه فى المناظرة التى عقدت بينه وبين أبى المعالى «الجوينى» أمام الوزير ـ النظام ـ فى أصبهان وتفوقه فيها على منافسه وبقى فى منصبه ثلاث سنين إلى أن مات سنة ٤٨٢هـ[٥].

---

(١) ابن خلكان جـ ١ ص٩. انظر ترجمته أيضًا فى مرآة الجنان لليافعى جـ ٣، والبداية والنهاية جـ ١٢ ص١٢٦ وفى نكت الهميان ص ١٢٣.

(٢) السبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ٢٢٣.

(٣) نفس المرجع.

(٤) ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ٦٥- حوادث سنة ٤٧٩هـ.

(٥) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ٩ ص ٢٧- حوادث سنة ٤٨٢هـ- السبكى جـ٤ ص٦، والنجوم الزاهرة جـ٥ ص١٢٩.

وفى المحرم من سنة ٤٨٣هـ ورد بغداد «أبو عبد اللّه الحسين بن على» الطبرى حاملاً منشور الوزير بتوليته التدريس فى النظامية. وكان قد ألّف كتاب «العدّة» فى شرح «إبانة» الفورانى... وفى ربيع الآخر من هذه السنة وصل أيضًا ـ أبو محمد عبد الوهاب القاضى الشيرازى، ومعه منشور بالتدريس فتقرر أن يدرّسا بالمناوبة يومًا ويومًا. وهى أول ظاهرة فى تعدّد الأساتذة لمادة واحدة فى نفس المدرسة، وهى ظاهرة لا نستطيع لها تفسيرًا بغير الاضطراب فى التعيين، وعدم الاعتماد على المعينين، لذلك لم يمر عليهما عام واحد حتى عزلا وعيّن الغزالى محلهما سنة ٤٨٤هـ على إثر تفوقه فى مناظرة جرت فى مجلس «النظام» مع زين الدين شرف الأئمة.

الغزالي وأشهر تلامذته :

وقضى الغزالى خمس سنوات تقريبًا إلى أن اعتزل المدرسة بين سنة ٤٨٨-٤٨٩هـ إلى الاعتكاف والرياضة النفسيّة فأعيد الطبرى إلى منصبه فى التدريس حتى توفى سنة ٤٩٥هـ كما توفى زميله فى المناوبة سنة ٥٠٠هـ بعد أن ألّف كتاب ـ الآحاد ـ وتفسيرًا ضمّنه ألف بيت من الشواهد[١].

وليس من شك بأن الغزالى كان من أشهر الأساتذة الذين تولوا التدريس فى نظامية بغداد على عهد «النظام» وليس من شك بأنه سبقهم فى كثرة مؤلفاته كما فاقهم فى تصوّفه واعتكافه فقد «برع فى المذهب والخلاف والجدل والأصلين ـ أصول الفقه وعلم الكلام ـ وصنّف فى كل فن منها»[٢] حتى بلغ مجموعها ٥٦ كتابًا من أهمها: إحياء علوم الدين الذى اعتمد فيه ـ كما يرى السبكى ـ على كتابى ـ قوت القلوب ـ لأبى طالب المكى، والرسالة القشيرية لأبى القاسم القشيرى[٣]. ومنها أيضًا ـ الوجيز[٤] والوسيط[٥] والمنقذ من الضلال وتهافت الفلاسفة والمستظهري والتبر المسبوك وغيرها.

---

(١) السبكى جـ ٤ ص ٢٦٩.
(٢) السبكى جـ ٤ ص ١٠٤.
(٣) السبكى جـ ٤ ص ١٣٢.
(٤) منه نسخة قديمة جدًا يرجع تاريخها إلى سنة ٥٠٧هـ فى مكتبة جامعة ـ يَيْلْ ـ بنيوهافن بأميريكا.
(٥) ومنه نسخة بخط الشروانى يرجع تاريخها إلى سنة ٦١٩هـ فقه شافعى رقم ٣١٦- دار الكتب.

وكان اختياره للتدريس بالنظامية كالمعتاد على إثر مناظرة جرت بين يدى «النظام» فى المعسكر توفق فى محاججة معارضيه وظهر عليهم فمنحه الوزير لقب ـ زين الدين وشرف الأئمة[١] ـ ولقى من أعلام بغداد ومعلميها ـ حين قدومه إليها ـ إعجابًا به وإقبالاً على محاضراته قلَّ أن يتحقق لغيره من العلماء، وحضر دروسه ـ أبو الوفاء بن عقيل وأبو الخطاب، وتعجبوا من كلامه واعتقدوا فائدته ونقلوه إلى مصنفاتهم.

ولا نعرف أحدًا من أساتذة النظاميات أحدث من حوله ضجيجًا علميّا كأبى حامد الغزالى هذا، فقد بدأ التساؤل عن حقيقة آرائه، والأخذ بنظرياته والإعراض عنها منذ أيام حياته حتى عصرنا الحاضر، وكتب عنه وعن مؤلفاته مالم يكتب عن غيره، واشترك فى اتهامه والذب عنه علماء المغرب والمشرق على السواء[٢]. . ولذلك أصبح ـ عندما وضع رحله فى المدرسة النظامية ـ ببغداد ـ مقصد هواة العلم، ومطمح كل هادف رفعة ومكانة، يشدّون إليه الرحال من كل فجّ وصوب، فكان من أشهر من صحبه وأفاد منه ـ أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ـ الشهرستانى مؤلف كتاب «الملّ والنحلّ، والعيون والأنهار»[٣]. وممن تتلمذ وتفقّه على يديه: أبو إسحاق الغنوى الرقى الذى كتب الكثير من تصانيف أستاذه[٤]، وأبو طالب الرازى الذى كان يحفظ «إحياء» أستاذه[٥]، وأبو سعيد الجاوانى الذى تحدّث بكتاب ـ إلجام العوام ـ عن أستاذه[٦]، وأبو سعيد النيسابورى صاحب المحيط فى شرح الوسيط، والإنصاف فى مسائل

---

(١) المنتظم جـ ٩ ص ٥٥ – حوادث سنة ٤٨٤هـ.

(٢) المنتظم جـ ٩ ص ١٧٠ – حوادث سنة ٥٠٥هـ.

(٣) انظر: السبكى جـ ٤ ص ١٠٦-١٨٢، والمنتظم جـ ٩ ص ١٧٠ – حوادث سنة ٥٠٥هـ، وابن خلكان جـ ٣ ص ٢٣٥٣، والصفدى فى الوافى جـ ١ ص ٢٧٤، واليافعى فى المرآة جـ ٣ ص ١٤٥ – ٢٠١، وابن تغرى بردى جـ ٥ ص ١٣٤-٢٠٣، والبيهقى ـ تتمة صوان الحكمة ص ١٣٧.

(٤) طبقات السبكى جـ ٤ ص ٢٠٠، ٢٥٨.

(٥) نفس المصدر.

(٦) الطبقات جـ ٤ ص ٨٨.

الخلاف[1] ـ وأبو عبد اللّه بن خميس الجهنى مؤلف: منهج التوحيد، ومنهج المريد، وتحريم الغيبة[2] – وأبو عبد الله الطنزى الذى اتصل بالملك «زنكى بن آل سنقر» صاحب الموصل واستوزره[3]، ثم محمد بن عبد اللّه بن تومرت المغربى. الذى أسّس دولة الموحدين وألّف لأتباعه كتاب «أعزّ ما يطلب»[4] وغيرهم فى حياته وبعد مماته.

ولكن أبا حامد ـ لم يجد شفاء لغلته، وإرواءً لعطشه بما وصله من جاه ومنزلة وبلغه من نفوذ وشهرة فأناب أخاه ـ أبو الفتوح أحمد بن محمد ـ فى التدريس بدلاً عنه وتوجّه نحو المسجد الحرام سنة ٤٨٨هـ ومرّ بدمشق وبيت المقدس ومصر، وعاد إلى بغداد ومنها إلى نيسابور حيث اضطره ـ فخر الملك ابن النظام ـ وكان يومذاك وزيرًا للسلطان ـ محمد بن ملكشاه ـ للتدريس بنظاميتها. . ولكنه سرعان ما غادرها ورجع إلى طوس حيث شيّد إلى جنب داره مدرسة للفقهاء ورباطًا للصوفية، ووزّع أوقاته على ختم القرآن ومجالسة أرباب القلوب. . والتدريس وأداء الفرائض حتى انتقلت روحه إلى بارئها سنة ٥٠٥هـ/ ١١١١م وهو يردد: «عليك بالإخلاص»[5].

هذه صورة تاريخية مصغّرة لنظامية بغداد فى عهد «النظام» تاركين ما قُدِّر لها بعده من ظروف وأحوال لضيق المجال، ومهما قيل عن تعدد المدارس وأنه بنى فى كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة من الجدير بنا أن نضم إليها ما ثبت لدينا من نظاميات أخر لتتجلى لنا تلك الصورة ناطقة الملامح واضحة السمات، وإن كانت صغيرة الحجم دقيقة الخطوط والقسمات.

---

(١) نفس المصدر جـ ٤ ص ١٩٧.

(٢) نفس المصدر جـ ٤ ص ٢١٧.

(٣) نفس المصدر جـ ٤ ص ٣٠٨.

(٤) نفس المصدر جـ ٤ ص ٧١ ـ ٧٤.

(٥) المنتظم جـ ١ ص ٥- حوادث سنة ٥٠٦هـ، والخونسارى ـ روضات الجنات ص ٧١٩، والبداية جـ ١٢/ ١٣٧، وطبقات الشافعية جـ ٤/ ١٠٣.

٢- نظامية نيسابور:

ونيسابور ـ كما عرفنا من قبل ـ مدينة آهلة بالسكان، عامرة بالمدارس لذلك اتخذ منها ـ طغرلبك وألب أرسلان ـ حاضرة للسلطنة، فهى بعد بغداد عاصمة الخلافة رتبة فى حضارتها وسعتها، لذلك لم يرق ـ النظام ـ كرسىٍّ الوزارة حتى أمر بعودة النازحين منذ عهد «الكندرى» إلى أوطانهم، ولم يصل إمام الحرمين ـ الجوينى ـ إلى موطنه نيسابور حتى بنى له مدرسة على غرار نظاميته فى بغداد، ظلت تتبادل معها الأساتذة والطلاب، وتشاطرها الدعاية ونشر العلم والإرشاد مدة طويلة إلى أن انقرضت.

لم تذكر المراجع التى أطلعنا عليها تاريخ إنشاء هذه المدرسة ولكننا إذا عدنا إلى القول المتفق عليه بأن «الجوينى» بقى مدرسًا فيها قريبًا من ثلاثين سنة غير منازع ولا مدافع[١]، مع علمنا أنه قد توفى سنة ٤٧٨هـ يكون عام افتتاحها ما بين سنة ٤٤٨-٤٤٩هـ وهذا ما لا يمكن أن يصحّ لأن «النظام» لم يكن وزيرًا بعد، غير أن المعروف بأنه حينما استوزر طلب إلى المهاجرين أن يعودوا وكان عام استيزاره من تلك المدّة ـ على التأكيد ـ كان قد قضاها فى التدريس بالجامع «المنيعى» حينما أقعد فى التدريس مكان أبيه[٢].

واستمر الجوينى ـ على ذلك ـ له المحراب والمنبر والخطابة ومجلس الذكر[٣]. وكان يحضر دروسه حوالى ثلثمائة طالب وقيل أربعمائة[٤] من بينهم العلماء وأبناء الصدور، وألّف عدة كتب لتكون مرجعًا سهلاً فى متناول طلابه وغيرهم ومن أشهرها: النهاية فى الفقه والبرهان فى أصوله، والشامل والإرشاد فى أصول الدين، كما ألّف برسم الحضرة النظامية ثلاثة كتب هى: الغياثى والنظامى والرسالة النظامية فقوبلت بما يليق بها من الشكر والخلع

(١، ٢، ٣) طبقات السبكى جـ ٣ ص ٢٤٩، وابن الجوزى جـ ٩ ص ١٨- حوادث سنة ٤٧٨هـ.

(٤) ابن خلكان جـ ٢ ص ٣٤١، وابن الجوزى ـ المنتظم جـ ٩ ص ٢٠- حوادث سنة ٤٧٨هـ.

والهدايا والرسوم[1]. وكان مجتهدًا لا يتقيّد بقول الأشعرى والشافعى[2]. لذلك لم يقابل فى اجتهاده بالرضا والاستحسان فى بعض الأوساط السنّية فأبو الوفاء بن عقيل ـ من معاصريه ـ يقول عنه: «وذكر الجوينى فى بعض كتبه ما خالف به الإجماع إجماع الأمة»[3]، وأبوالفداء ـ بعد ذلك ـ يقول عنه: «وكان إمام الحرمين قد ادّعى الاجتهاد المطلق لأن أركانه حاصلة له ثم عاد إلى اللائق به وتقليد الإمام الشافعى»[4].

وكان من أشهر تلاميذه: أبو نصر القشيرى، ذهب إلى الحجّ بعد تخرجه على إمام الحرمين وعند عودته عقد له المجلس فى نظامية بغداد، وحضرمجلسه الخواص وأحدث وعظه دويًا عنيفًا فى نفوس أنصار الشافعى ومناوئيه اهتزت له أرجاء العراق وأنحاء خراسان، واستمرت المعارك الدامية بين الحنابلة والأشاعرة قرابة خمسة أعوام ـ من سنة ٤٦٩ - ٤٧٥هـ - فاستدعاه «النظام» وجهّزه إلى نيسابور فبقى فيها إلى أن مات سنة ٥٢٤هـ[5].

ومن تلاميذه الحافظ ـ أبو الحسن عبد الغافر ـ النيسابورى صاحب كتاب ـ السياق ـ فى تاريخ نيسابور، ومجمع الغرائب فى غريب الحديث[6]. . وأبو سعد بن أبى صالح المؤذن الذى قرأ على أستاذه كتاب «الإرشاد»[7] وأبو القاسم الأنصارى مصنّف ـ شرح الإرشاد ـ وكتاب «الفقيه» وأمين خزانة الكتب

---

(١) السبكى جـ ٣، ترجمة الجوينى ص ٢٤٩-٤٨٢، وفى الوفيات جـ ٢ ص ٣٤١، ومرآةالجنان جـ ٣ ص ١٢٣ «العقيدة النظامية».

(٢) طبقات السبكى جـ ٣ ص ٢٦٣.

(٣) المنتظم جـ ٩ ص ١٩.

(٤) المختصر فى تاريخ البشر جـ ٢ ص ٢٠٦.

(٥) المنتظم جـ ٨ ص ٣٠٥-٣٠٧، وطبقات السبكى جـ ٤ ص ٢٥١، ومرآة الجنان جـ ٣ ص ٢١٠، وذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٤-٢٨.

(٦) طبقات السبكى جـ ٤ ص ٢٥٥، والريفيات جـ ٢ ص ٢٩٢.

(٧) الطبقات جـ ٤ ص ٢٥٤.

النظامية بنيسابور[1]. . وأبو محمد البيهقى إمام الجامع المنيعى، وكان لسرعة قلمه أن خطّ كتاب أستاذه ـ لبيعه أكثرمن عشرين مرّة[2]. ثم أبو نصر بن أبى بكر السراج الذى برع فى الفقه حتى صار من المعيدين فى درس أستاذه ـ الجوينى[3].

ومما يرشدنا إلى مكانة هذه المدرسة ومنزلتها العلمية أنها كانت تخرج من العلماء من يصلح للتدريس فى نظامية بغداد كالإمام «الغزالى»، و «الطبرى»، و«الكيا الهراسى» فقد تخرّج هؤلاء على «الجوينى» وصاروا من رؤوس المعيدين لدرسه، وألّف ثالثهم: شفاء المسترشدين ونقد مفردات الإمام «أحمد» وكتابًا فى أصول الفقه[4]. . وأنها كانت تستقبل الأساتذة الزائرين فتعهد إليهم بإلقاء الدروس وقد زارها من «تفليس» المحدث أبو الفضل محمد بن أحمد المتوفى سنة ٤٨٢هـ شيخ الصوفيه ومؤلف كتاب «بستان العارفين» حيث قدم نيسابور وأمضى بالنظامية أيامًا[5].

ومن أساتذة هذه المدرسة بعد الجوينى الشيخ أبو سعيد بن أبى القاسم القشيرى المتوفى سنة ٤٨٤هـ. . كان يعقد مجالس الإملاء عشيات الجمع فى النظامية ويخرّج بنفسه الحديث ويتكلم عن المتون ويستخرج المشكلات ويستنبط المعانى والإشارات ويزينّها بالحكايات والأبيات[6]. .

ومنهم أبو المعاطى المعروف بالشهاب الوزير من أسرة «النظام»، حيث تولى التدريس بمدرسة عمه ثم ارتفعت درجته حتى صار وزير السلطان «سنجر بن ملكشاه» إلى أن توفى سنة ٥١٥هـ[7]. ومنهم أبو المعالى مسعود بن الإمام أبى

(١) طبقات السبكى جـ ٤ ص ٢٢٣.
(٢) المرجع السابق جـ ٤ ص ٣٤٣.
(٣) نفس المصدر جـ ٤ ص ١٤٤.
(٤) المنتظم جـ ٩ ص ١٤٢، ١٤٣، والطبقات، والكامل - حوادث سنة ٥٠٤هـ جـ ١٠ ص٢٠٢، وابن خلكان جـ ٢ ص ٤٤٩.
(٥) الذهبى.
(٦) طبقات السبكى جـ ٣.
(٧) المرجع السابق جـ ٤ ص ٢٥٤.

المظفر الخوافى، تفقّه على إمام الحرمين فى النظامية ثم صار أحد مدرسيها ومات سنة ٥٦٦هـ.

وكان آخر من عرفنا من مدرسى هذه المدرسة ـ الإمام ـ أبو المعالى قطب الدين النيسابورى صاحب كتاب ـ الهادى ـ درس بنظامية نيسابور نيابة عن ـ ابن الجوينى ـ ثم وصل إلى العراق والشام وألقى الدروس فى مدارس دمشق إلى أن توفى سنة ٥٧٨هـ[١].

٣- نظامية أصبهان:

كان لهذه المدينة من إقليم خراسان أهمية كبيرة لاتنحصر فى كونها مركزًا تجاريًا أو علميّا فحسب، وإنما لموقعها الجغرافى المتوسط الذى جعل منها هدفًا للمتنافسين على العرش من آل سلجوق، فلم يثبت لطغرلبك السلطان حتى أغدق عليها الأموال وأنشأ فيها «الدور والمساجد فى حدود خمسمائة ألف دينارخلال اثنى عشر عامًا»[٢]، وبعد أن تسلم ـ ألب أرسلان ـ العرش «رسم لابنه ملكشاه ـ الإقامة فيها وضم إليه إقطاعها حتى يكون كالمطل على فارس وخوزستان والناظر إلى الجبل وأذربيجان، الذاب عن الرى وخراسان»[٣] ولمّا ولى ملكشاه العرش جعل منها عاصمة ملكه وبنى فيها العمائر الفخمة والحدائق الغنّاء وأجرى فيها قنوات المياه، فإذا أمّها المسافر رأى فى مدخلها من الجنائن أربع لا ينقص مساحة إحداها عن ألف جريب منسقة الواجهة، وتبتسم عن أقاحيها تغور نواحيها[٤].

ولزيادة الترفيه عن أهاليها فقد توسط ـ النظام ـ للسلطان «ألب أرسلان» بأن يسقط عنهم التوزيعات والعلاوات ويمحى أرسمة التوابع والمحالات، ولا يتجنّى على أحدالعمال والولاة إلاّ بالحق ولا يؤخذ الجانى إلاّ فى جناية ظاهرة بشهادات متضافرة[٥]، وصدر بذلك مرسوم سلطانى علّق على أبواب المساجد

(١) طبقات السبكى جـ ص ٣٠٩، والوفيات ج٤ ص ٢٨٣.
(٢) المافروخى ـ محاسن أصبهان ص ١٠١.
(٣) المصدر السابق ص ١٠٢.
(٤) نفس المصدر ص ٥٣.
(٥) نفس المصدر ص ١٠٢.

ليتسامع به البعيد والقريب، وبذلك بلغت أصبهان من العمران والاستقرار درجة تحسدها عليها حواضر الأقاليم وربما عاصمة الخلافة أيضًا.

ولم يكف «النظام» سعيه هذا لرفع مستوى المدينة اقتصاديّا حتى شملت عطاياه طلاب العلم ورواة الحديث وهواة الأدب بحيث لم يبق بها ناظم بيت ولا كاتب كلمة ولا مورد نكتة ولامتقن مسألة ولا حامل محبرة إلاّ أدّر عليه مرسومًا، وأقام له رزقًا معلومًا، أو أقطعه حصة أو ردّ عليه بالملكية مزرعة[1]، وشيّد لهم مدرسة لم تنشأ حتى أخذت تنافس نظامية نيسابور وبغداد بأساتذتها وتلاميذها. وقد وصفها لنا ـ المافروخى ـ فقال: «بأنها ابتنيت بجوار الجامع كأحسن ما رؤى هيئة وهيكلاً ومتعة وعملاً ومحلاً ومنزلاً، وعلى طرفيهامنارة عجيبة الوضع رائعة الأصل والفرع، يصعد ثلاثة أنفس إلى أعلاها فى ثلاث درجات فلا يرى أحد صاحبه إلى أن يعلوها، وقدرت ما انصرف فى نفقاتها والموقوف عليها من الضياع والمستغلات الموسوم ابتياعها للوقف عليها عشرة آلاف دينار»[2].

وكان من أشهر مدرسيها: أبو بكر محمد بن ثابت الخجندى، ولاّه «النظام» تدريس الفقه بها مدّة إلى أن توفى سنة ٤٨٣هـ[3]، ثم درس بها ابنه ـ أبو سعيد أحمد ـ المتوفى سنة ٥٣١هـ[4]،ثم أبو المعالى ـ فخر الدين الوركانى ـ وقد درس بها نيابة عن أولاد الخجندى حتى توفى سنة ٥٥٩هـ[5].

وقد بلغت نظامية أصبهان شأوًا بعيدًا فى السمعة وحسن الصيت فأخذ طلاب العلم يشدّون إليها الرحال بعد وفاة أبى إسحاق الشيرازى ـ عميد نظامية بغداد ـ للتفقّه على يد أستاذها الشهير ـ الخجندى ـ فوفد عليها ـ أحمد ابن سلاّم بن مخلد ـ المعروف بابن الرطبى ثم رجع إلى العراق[6]، وأبو بكر

(١) المافروخى ـ محاسن أصبهان ص ١٠٣.
(٢) المصدر السابق ص ١٠٥.
(٣) طبقات السبكى جـ ٣ ص ٥٠، ومرآة الجنان جـ ٣ ص ١٣٤.
(٤) طبقات السبكى جـ ٤ ص ٥٠، والمنتظم جـ ١٠ ص ٦٨.
(٥) طبقات السبكى جـ ٤ ص ٢١٢، وقد ترجم له السمعانى فى التحبير والعماد الكاتب فى الخريدة.
(٦) ابن عساكر - التبيين ص ٣٢٢.

أحمد بن محمد الأرجانى، حيث قضى عنفوان عمره بالمدرسة النظامية بأصبهان إلى أن توفى سنة ٥٤٤هـ، وله ديوان شعر مطبوع[١].

وكانت تسمى ـ الصدرية ـ حسب ما يذكر مؤلف ـ العراضة فى الحكايات السلجوقية وكان من مدرسيها المشهورين ـ محمد بن ثابت الخجندى ـ الشافعى المتوفى سنة ٤٨٣هـ. ويقول المافروخى فى كتابه ـ محاسن ـ أصبهان: «إن «النظام» أنشأ هذه المدرسة قرب المسجد الجامع الذى كان قد أنشأه وكان عظيم الأبهاء وله منارة يرقى إليها ثلاثة أشخاص من ثلاث ممرات». كما ذكرنا أنفًا.

٤- نظامية مرو:

ويطلق عليها أحيانًا ـ مرو الشاهجهان ـ تمييزًا لها عن «مرو الروذ» وقد اشتهرت فى التاريخ الإسلامى بطبيعتها فاتخذ منها الخليفة ـ المأمون ـ العباسى مركزًا لملكه، كما جعلها الملك جغرى بك داود ـ حاضرة لبلاده ثم اختارها حفيده السلطان ـ سنجر بن ملكشاه ـ عاصمة لدولته إلى أن مات بها.

ويصفها لنا ياقوت، عند ما زارها سنة ٦١٣هـ وقضى فيها ثلاث سنوات ويطنب فى وصفها ويثنى على خُلُق أهليها ويدفع عنهم ما قيل من بخل وشح: «ولولا ما عراه من هجوم النتر عليها لما فارقها إلى الممات، لما فى أهلها من الرفد ولين الجانب وحسن العشرة وكثرة كتب الأصول[٢]، وقد تركها سنة ٦١٦هـ وفيها عشره خزائن موقوفة لم ير فى الدنيا مثلها كثرة وجودة، كان من جملتها ـ خزانة نظام الملك الحسن بن على بن إسحق ـ فى مدرسته»[٣].

لقد أسّس «النظام» فيها مدرسة ووكّل أمر التدريس فيها لأبى المظفر بن السمعانى «التميمى» بعد دخوله مرو سنة ٤٦٨هـ وانتقاله من مذهب أبى حنيفة الذى ظلّ يدافع عنه ثلاثين سنة إلى المذهب الشافعى، وكان لانتقاله صدى كبير أوقد نار الفتنة بين العراق وخراسان الى أن توفى سنة ٤٨٩هـ..

---

(١) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ١٠ ص ١٣٩، ووفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٧، وطبقات الشافعية جـ ٤ ص ٥١، وشذرات الذهب جـ ٤ ص ١٣٧.

(٢) ياقوت ـ معجم البلدان جـ ٤ ص ٥٠٩.

(٣) المصدر السابق ـ مادة «مرو».

وكان ممن تفقّه عليه وقام بالتدريس نيابة عنه ـ أبو الفتح أسعد الميهنى ـ ثم طاف حتى وصل غزنة ولاهور ثم قصد العراق ودرس بنظامية بغداد مرتين بعد الخمسمائة[١].

وتفقّه على الأستاذ ـ السمعانى ـ وتلميذه ـ الميهنى ـ كثيرون وبقيت المدرسة مقصد الطلاب والفضلاء من مختلف الأنحاء ينزلون فيها إذا وفدوا على مرو، وممن نزل فيها وسمع عنه الأحاديث «أبو سعيد بن أبى القاسم» البوشنجى المتوفى سنة ٥٣٦هـ[٢]، وأبو إسحاق إبراهيم الغزى من شعراء الشام الشهيرين الذى توفى سنة ٥٢٤هـ[٣] بعد أن خلّف لنا ديوانًا ضخمًا مازال إلى اليوم مخطوطًا[٤].

٥- نظامية عسكر مكْـرَم :

وخوزستان إقليم واسع بين واسط والبصرة وجبال أصبهان[٥]، ومن مدنها الشهيرة ـ عسكر مكرم ـ والأهواز وتستر ـ وقد شيّدت هناك مدرسة «للنظام» أشار إليها «ابن الأثير» ـ بنظامية خوزستان[٦]، وذكر أحد المترجمين ـ من مدرسيها ـ يوسف الدمشقى ـ والذى نظنّه أن المدرسة كانت فى عسكر مكرم، وكان من أوائل من درس فيها القاضى الأصبهانى ـ أبو الوفاء محمد بن محمد ـ المتوفى سنة ٥٣٧هـ حيث ولىّ القضاء فى هذه المدينة ودرس بنظاميتها[٧]، ودرّس فيها كذلك «أبو المحاسن يوسف الدمشقى» حيث كان مدرسًا فى نظامية بغداد ثم بعث رسولاً إلى ـ شملة التركمانى ـ فى خوزستان ودرس فى مدرستها ومات هناك سنة ٥٦٣هـ[٨].

(١) طبقات السبكى جـ ٤ ص ٢١ ـ ٢٦.
(٢) السبكى ـ الطبقات جـ ٤ ص ٢٠٣، والمنتظم وابن خلكان، ومعجم البلدان، وتاريخ كزيدة.
(٣) السبكى ـ الطبقات جـ ٤ ص ٢٠٦.
(٤) العماد الأصبهانى ـ الخريدة جـ ١ ص ٣٢.
(٥) مراصد الاطلاع جـ ١ ص ٤٩٠.
(٦) محمد عبد الرزاق ـ كتاب نظام الملك ص ٦٦٨.
(٧) الوافى بالوفيات جـ ١ ص ١٤٤.
(٨) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ١٠ ص ٢٢٦.

٦- نظامية البصرة:

وهى مدينة للعلم اشتهرت بمدرستها فى النحو لذلك وقف «ابن بطوطة» أمام خطيبها عام ٧٢٦هـ ينظر إليه بعين الاستغراب والاستهجان وهو يلحن بعد أن أخليت من النحاة[١].

ونظامية البصرة ـ كما يظهر ـ من رواية ـ هندوشاه ـ وغيره كانت أوسع من نظامية بغداد[٢]، وكانت ملتصقة بضريح «الزبير بن العوام» وبقيت تحتفظ بمكانتها وإقبال الدارسين عليها إلى أواخر عهد الخليفة «المستعصم باللّه»، حيث تهدمت ونقلت أنقاضها إلى البصرة. ولكنّا لانعرف متى بنيت ومن هم أشهر مدرسيها وتلاميذها على وجه التأكيد سوى ـ أبى الفضل الأنبارى ـ من أعيان تلاميذ الإمام الشيرازى وصهر فخر الإسلام أبى بكر الشاشى، ولىّ القضاء فى البصرة والتدريس بنظاميتها إلى أن توفى سنة ٥٠٣هـ[٣].

٧- نظامية الموصل:

وكان «للنظام» فى شمال العراق مدرسة كما كان له فى جنوبه.. وقد اختار لها مدينة «الموصل» البلد الإسلامى الواقع على شاطئ دجلة وأشهر مدن ـ جزيرة ابن عمر ـ ولا نستطيع أن نحدّد زمن تأسيسها ولا فى أى وقت كان انقراضها، وهل هى نظامية جزيرة ابن عمر نفسها أو غيرها؟، وكل ما نستطيع أن نتأكد منه: أنها كانت فى الفترة بين أواخر القرن الخامس حتى نهاية القرن السادس حيث توفى آخر من نعرفه من أساتذتها عام ٥٩٨هـ..

ومن الغريب أن «ابن جبير» لم يذكر لنا شيئًا عنها حينما زار الموصل سنة ٥٨٠هـ على الرغم من أنه شاهد من المدارس نحو الست أو تزيد على دجلة وقال عنها: «إنها تلوح كأنها القصور المشرقة»[٤]. ولم يبق لنا من هذه المدارس

(١) ابن بطوطة - الرحلة .
(٢) تجارب السلف ، وروضة الصفا.
(٣) السبكى ـ الطبقات جـ ٤ ص ٩٦.
(٤) ابن جبير ـ الرحلة ص ١٨٠ .

القديمة سوى مدرسة ـ الطغرائى ـ محتفظة باسمها القديم، فليس غريبًا بعد هذا أن وجدنا «ابن بطوطة» لم يشر إليها بشىء عندما مرّ بالموصل سنة ٧٢٦هـ، مع أنه وصف مساجدها وحماماتها وخاناتها وأسواقها كسابقه[١].

والذى نميل إليه أنها هى التى عناها ـ ياقوت ـ بنظامية الجزيرة[٢]، وهى التى وصفها صاحب «الروضتين» بأنها مدرسة كبيرة حسنة، وأطلق عليها اسم مدرسة «الرضى»[٣] نسبة إلى لقب مؤسسها «نظام الملك» رضى أمير المؤمنين حيث لم نجد فى كتب السِيَرْالمعروفة لدينا غيرها بهذا الاسم أو عيَنْ المدينة التى بنيت فيها، على أن أحد مؤرخى آثار العراق المحدثين قد حدّد موقعها فى مقام ـ الإمام على الأصغر المعروف بمقام أبى على أو ابن محمد بن الحنفية ـ الذى يعرف بمشهد «يحيى بن القسم» الذى اتخذه بدر الدين لؤلؤ ـ فى هذه المدرسة التى بناها «النظام» على دجلة[٤]، فهو يقابل الجامع النورى، يفصل بينهما شارع، ولم يبق من آثارها إلاّ محراب نفيس من المرمر الأزرق المطعّم بمرمر أبيض وحوله مكتوب بخط كوفى البسملة وإنما يعمر مساجد اللّه[٥].

أمّا الأساتذة الذين وردتنا أسماؤهم فإن أول من عرفناه منهم: الشهرزورى أبو حامد محمد بن محمد بن عبد الله الموصلى، ولى القضاء بالموصل ودرس بمدرسة أبيه وبالمدرسة النظامية إلى أن توفى سنة ٥٨٦هـ وعمره ٦٢سنة[٦]، ثم ـ الدُّنبلى ـ أبو العباس أحمد بن نصر الأنبارى ـ درس بالنظامية العتيقة بالموصل ولم يزل يدرس ويفتى إلى أن توفى سنة ٥٩٨هـ[٧]. ولعلّ

(١) ابن بطوطة ص ٢١٣، ٢١٤.

(٢) معجم البلدان ـ مادة «جزيرة ابن عمر».

(٣)الروضتين ص ٢٥٨.

(٤)العمرى – ياسين بن خيرالله، منية الأدباء فى تاريخ الموصل الحدباء ص١٠٣، والهامش للناشر سعيد ديوجى.

(٥) سعيد الديوجى – تاريخ الموصل جـ ١ / ١٣٤٤.

(٦) طبقات السبكى جـ ٤ ص ١٠٠، وابن خلكان جـ ٣ ص ٣٧٩.

(٧) طبقات السبكى جـ ٤ ص ٥٧.

أول مـن درس بها القاضى أبو بكر محمد بن على الخالدى المعروف بالسديد، قاضى الموصل[١].

٨ـ نظامية هراة:

وهراة ثغر على الحدود الشمالية «لأفغانستان»، ومن أمهات المدن فى إقليم «خراسان»[٢] وكانت من مراكز العلم ومتعصبى المتكلمين فى القرن الخامس الهجرى، ففى سنة ٤٧٨هـ حدثت بين أنصار الشافعى وأحد المتكلمين فتنة، وهجم المتعصبون على أبى سعد مدرس النظامية، وكـان يقـود حملـة الحنابلـة أبو عبد اللّه الأنصارى الهروى صاحب كتاب: منازل السائرين، والمناجاة، والنصيحة النظامية، فبعث «النظام» لإبعاده عن هراة حتى خبت الفتنة وأعيد سنة ٤٨٠هـ وبقى فيها إلى أن توفى سنة ٤٨٣هـ[٣].

فكان لابد «للنظام» من أن يؤسّس فى مثل هذه المدينة مدرسة لأصحاب الشافعى وما أن تمّت حتى استدعى لها ـ أبو بكر الشاشى محمد بن على ـ من مشاهير العلماء بغزنة وصاحب التصانيف الكثيرة، فصعب على أهلها مفارقته لهم، ولكنهم لم يجدوا بدًّا من امتثال أمر الوزير فجهزوه بعائلته إلى هراة فدرّس بنظاميتها إلى أن مات سنة ٤٨٥هـ وقيل سنة ٤٩٥هـ[٤].

ومن أساتذتها أيضًا ـ أبو سعيد محيى الدين النيسابورى ـ صنّف كتاب المحيط فى شرح الوسيط ـ والانتصاف فى مسائل الخلاف، كان مدرسًا بنظامية نيسابور ثم نقل إلى نظامية هراة، وبقى على تدريسها حتى استشهد على يد الغز سنة ٥٤٨هـ[٥].

---

(١)الديوجى - تاريخ الموصل جـ ١ / ٣٤٤، عن رحلة ابن جبير/ ١٨٠.

(٢) مراصد الاطلاع ـ مادة هراة.

(٣) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ٩ ص ١٥، ١٦، وابن رجب البغدادى ـ ذيل طبقات الحنابلة ص ٦٦ ـ ٧١.

(٤) الذهبى ـ سّير أعلام النبلاء مجلد ١١ ص ٥٣٤، والطبقات جـ ٣ ص ٧٩.

(٥) ابن خلكان ـ الوفيات جـ ٣ ص ٣٥٩- مرآة الجنان جـ ٣ ص ٢٩٠- الكنى والألقاب جـ ٢ ص ١٣٨.

٩- نظامية بلخ:

وهى من أجمل المدن فى خراسان ذكرًا، وأكثرها خبرًا[١] يوم كانت بلاد ما وراء النهر جزءًا منها. وقد عُنى بها السلاجقة فعمروها وبنوا فيها المساجد وشيّدوا فيها القصور، وأسّس فيها «النظام» مدرسة عهد بالتدريس فيها لأبى القاسم[٢] عبد اللّه بن طاهر، وكان إمامًا فى الفروع والخلاف والأصول. توفى سنة ٤٨٨هـ وكان معيدًا فيها ـ أبو حفص عمر بن أحمد البلخى ـ المتوفى سنة ٥٢٦هـ[٣]. ثم أبو القاسم عبد الله بن عمر بن الطريف ـ من أهل بلخ ومدرس النظامية بها[٤].

١٠- نظامية آمُلْ:

وطبرستان بلاد واسعة تشمل مدنًا كثيرة، وتسمى بـ «مازَنْدران» أيضًا[٥]، وقد أورد لنا «السبكى» فى طبقاته اسما لشخصين درّس أحدهما وهو «أبو المحاسن الرويانى» بنظامية طبرستان، وصنّف كتاب ـ البحر ـ فى الفقه، وكان «النظام» كثير التعظيم له، ثم انتقل الى «آمل»، وأقام فيها حتى قتل سنة ٥٠٢هـ[٦]. وثانيهما سبطه وهو ـ أبو الفوارس هبة اللّه بن سعد ـ من أهل «آمل» طبرستان، وكان يدرّس بالنظامية التى بآمل إلى أن توفى سنة ٥٤٧هـ[٧]. والظاهر أنهما مدرسة واحدة وردت باسمين فظنها بعضهم مدرستين.

---

(١) مراصد الاطلاع ـ مادة بلخ.

(٢) طبقات السبكى جـ ٣ ص ٢٠٤.

(٣) طبقات السبكى جـ ٣ ص ٢٨٥.

(٤) المرجع السابق جـ ٣ ص ٢٣٥.

(٥) مراصد الاطلاع - مادة طبرستان.

(٦) هو عبد الواحد بن إسماعيل بن أحمد، اشتهر بالحفظ حتى روى عنه أنه قال «لو احترقت كتب الشافعى لأمليتها من حفظى» ذكره ابن السمعانى فى الذيل والجرجانى والعماد- طبقات السبكى جـ ٤ ص ٢٦٥.

(٧) طبقات السبكى جـ ٤ ص ٣٢١.

١١- نظامية طوس:

لم نجد بين المؤرخين وكتّاب السير الذين قرأنا لهم مَنْ ذكر هذه المدرسة أو أشار إلى مدرسيها عدا مؤلف ـ صور الأقاليم ـ عند حديثه عن خراسان والذى يظهر من روايته أن «النظام» بنى فى طوس مدرسة صغيرة قبل نظامية بغداد[١]، إلاّ أننا لا نجد غرابة فى هذا إن صحت الرواية فإن طوس مهبط رأس «النظام» ومقرّ دراسته فى الصبا، ثم هى المدينة التى أقطعها له السلطان ملكشاه تقديرًا لجليل خدماته للدولة، فأصبحت بذلك من ممتلكاته فضلاً عن أنها من أحبّ المدن إلى نفسه.

ولم تزل ـ طوس ـ حتى اليوم تحتفظ بمكانتها العلمية ومكتبتها الغنيّة بنوادر المخطوطات القديمة.

* * *

(١) محمد عبد الرزاق ـ «نظام الملك» ص ٦٧١ عن صور الأقاليم فى تاريخ خراسان.

obeikandl.com

المكتبات النظامية
(المدرسيّة والخاصة)

لم يكن الحصول على الكتب مهما صغر حجمها، وتضاءل موضوعها بالأمر الهيِّن اليسير آنذاك، ولولا كثرة المحترفين للنسخ وتفرّغهم لبلغت أثمانها أضعاف ما وصلت إليه، واستحال على الباحثين ـ وجلّهم إن لم يكونوا كلهم من الفقراء ـ اقتناؤها. وإنَّ ما بقى من تراث مخطوط يملأ رفوف المكتبات فى عواصم الغرب والشرق على الرغم من الأحداث التى عفت على أكثره يدلنا على غزارة ذلك التراث وضخامته، كما أن ماذكره لنا صاحب ـ المكافأة ـ من أن ثمن النسخة المجلدة من كتاب «المجسطى» لبطليموس القلوذى ـ عشرون دينارًا[1]، إنما هو مبلغ باهظ فى ذلك الوقت ويصعب على الطالب صرفه من أجل كتاب واحد.

لذلك.. ومن أجل نشر العلم وغيره من أسباب، فكّر الموسرون من العلماء ورجال الحكم فى تأسيس دور جمعوا في غرفها مختلف المخطوطات فى تلك العصور مما يهّم المتعلم والمعلِّم معًا حتى كانت الدور التى أطلق عليها اسم دار الحكمة ـ حينًا ـ ودار العلم ـ أحيانًا ـ إنما هى دور للكتب فى الواقع وليست مدارس للتعليم بالمعنى الدقيق.. وكانت الخزائن التابعة للمدارس النظامية واحدة منها وإن لم تكن أولاها.

لم يقدر للخزانة النظامية الأولية فى ميلادها حيث سبقتها أخرى تضم مئات الكتب فى العلوم المختلفة.. وإن تاريخ الخزائن هذه يسبق المدارس بمعناها الذى

(١) ابن الداية ـ المكافأة حسن العقبى ص ١٤١.

استحدث فى عهد «النظام» بقرون طوال، فقد حفلت عواصم الممالك فى العراق ومصر والأندلس وفارس بمكتبات تضم بين جدرانها آلاف المجلدات فى أنواع المعارف والفنون.

وكانت خزائن الكتب هذه انتشرت فى المناطق التى أسّس «النظام» فيها مدارسه ومكتباته قبيل ظهوره، وكان من أهمها وأشهرها خزانة الكتب لأبى القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الشافعى الموصلى[١] المتوفى سنة ٣٢٣هـ ودار الكتب فى البصرة لأبى منصور عبد اللّه بن محمد المعروف بابن شاه مروان الوزير[٢]، وأخرى لأبى على بن سوار الكاتب من رجال عضد الدولة والتى قال عنها ابن الجوزى حينما احترقت عام ٤٨٣هـ إنها أول دار كتب عملت فى الإسلام[٣]، ثم دار العلم التى أنشأها فى محلة الكرخ فى الجانب الغربى ببغداد سنة ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م أبو نصر سابور بن أردشير سنة ٤١٦هـ وزير بهاء الدولة ابن عضد الدولة البويهى، التى كانت تحوى عشرة آلاف كتاب وأربعمائة مجلد من أصناف العلوم، وفيها مائة مصحف بخطوط ابن مقلة[٤] والتى كان من روّادها: أبو منصور محمد بن إسحاق الكاتب، وأبو منصور محمد بن أحمد الخازن ثم الشريف المرتضى، وأبو العلاء المعرّى الذى قال فيها بيتين من الشعر أثارهما سجع حمامة كانت تنوح على غصن شجرة فى تلك الدار:

وغنّت لنا فى دار سابور قينة ... من الورق مطرابُ الأصائل ميهال

رأت زهرًا غضًّا فهاجت بمزهر ... مثانيه أحشاء لطفن وأوصال

وبلغت شهرتها مصر فشيّدوا على غرارها دار الحكمة فى عهد الحاكم بأمر

(١) ياقوت ـ معجم الأدباء جـ ٦ ص ١٩٧.

(٢) ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ١٢٢، وكشف الظنون ص ٦٢٢.

(٣) ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ١٣٢- ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ٩ ص ٥٣- حوادث سنة ٤٨٣هـ.

(٤) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ٧ ص ١٧٢، وياقوت ـ معجم البلدان ـ بين السورين جـ ١ ص ٢٤٢ ، وابن خلكان ـ الوفيات جـ ١ ص ٢١٧، ومختصر مناقب بغداد ص ٢٨، والكامل جـ ١٠ ص ٥- حوادث سنة ٣٨٣هـ.

الله سنة ٤٠٠هـ[١] وفى أثناء ثورة البساسيرى وعودة طغرلبك لحربه (ما بين سنة ٤٥٠-٤٥١هـ/١٠٥٩م) كادت تلتهمها - أى دار سابور - ألسنة النيران، ونهب العامة بعض كتبها فأبعدهم «الكندرى» واختار لنفسه خير ما بقى منها فنسب صنيعه إلى سوء سيرته[٢].

ومثل هذه الدور فى العراق كانت دور للعلم منتشرة فى فارس من أهمها: دار أبى منصور بهرام بن مافتة الكازرونى - وزير - أبى كاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة المتوفى سنة ٤٢٣هـ، وقد أنشأها فى فيروز آباد وجمع فيها تسعة عشر ألف مجلد منها أربعة آلاف ورقة بخط ابن مقلة[٣]. ثم خزانة الكتب التى نقلها عضد الدولة[٤]، والتى أنشأها - أبو جعفر المهلبى - فى همدان وكانت تحتوى على اثنى عشر ألف كتاب، وفى بخارى بنى السامانيون دارًا جمعوا فيها من كتب علوم الأوائل فى الفلسفة والفقه والعربية الشىء الكثير[٥]. وفى غزنة علمنا من قبل كيف شيّد السلطان محمود جامعًا وبجواره مدرسة ومكتبة.

وعلى غرار هذه الدور وبنفس الدافع الذى حمل «النظام» على تأسيس مدارسه ألحَقَ بكل واحدة منها مكتبة عامرة بنفائس المخطوطات ونوادر المؤلفات فى العلم والأدب، وقد نمت هذه المكتبات وبخاصة المكتبة التابعة لنظامية بغداد حتى بلغت بعد قرن من وفاة «النظام» ستة آلاف مجلد كما أخبرنا ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠٠م) عندما نظر فى ثبت الكتب الموقوفة[٦] فقط،

---

(١) ابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢٢٢.

(٢) الحسينى - أخبار الدولة السلجوقية ص ١٧- ابن الجوزى- حوادث سنة ٤٥١هـ جـ ٨ ص ٢٠٥-٢١٦، والبداية والنهاية جـ ١٢ ص ١٩.

(٣) ابن الجوزى - المنتظم جـ ٨ ص ٦٥-١١١.

(٤) المقدسى - أحسن التقاسيم ص ١٣٣، ٤٤٨.

(٥) ابن سينا - نكت فى أحوال الشيخ ابن سينا ص ١٥.

(٦) ابن الجوزى - صيد الخاطر ص ٣٦٦- كوركيس عوّاد - خزان الكتب القديمة فى العراق.

وكانت مثلها مكتبة النظامية بنيسابور وأصبهان ومرو... فقد زار ياقوت الحموى هذه المدينة الأخيرة عام ٦١٣-٦١٤هـ ووصف خزائنها العشر ومنها الخزانة النظامية وما أفاده من ذخائرها فى تأليف كتبه ولا سيما ـ معجم البلدان، بحيث أنسته كل بلد، وألهته عن الأهل والولد ـ وكثيراً ما كان يترنم بقول بعض الأعراب[1]:

أقمرية الوادى التى خان إلفها من الدهر أحداث أتت وخطوب
تعالى أطارحك البكاء فإننا كلانا بمرو الشاهجان غريب

وقد ظفرت هذه الخزائن بطرائف المخطوطات وأثمن المؤلفات، لعلّ من المفيد أن أشير إلى بعض ما اطلعت عليه خلال دراستى هذه فإن معظمها مازال مفقوداً حتى اليوم، ولأن طراز نسخها وموضوعاتها تلقى لنا ضوءاً على لون الدراسات ونوع الكتب التى كانوا يعنون بها حينذاك.

فمن أوائل تلك الطرائف الغالية التى احتوت عليها خزانة نظامية بغداد كتاب ـ المحيط ـ فى تفسير القرآن تأليف القاضى ـ عبد الجبار الهمذانى ـ فى مائة مجلد، وقد اعتمد فيه على كتاب «المختزن» الذى ألّفه ـ أبو الحسن الأشعرى ـ فى خمسمائة مجلد.. روى لنا هذا الخبر ـ القاضى أبو بكر بن العربى فى عواصمه ـ وأنه قرأ الأول فى خزانة المدرسة النظامية بمدينة السلام[2]، وقد ورد ذكر هذا الجزء فى كتاب ـ العصا ـ لابن منقذ ـ نقلاً عن والده أنه كان فى زيارة لأبى يوسف ببغداد، وكان قد بلغ من العمر عتيّا ونسى كثيراً مما كان يذكره قال: فلمّا عرفنى بعد السؤال استخبرنى عن طريقى فعرّفته توجهى إلى دركاه السلطان ـ يقصد ملكشاه ـ فقال: «تبلغ خواجا بزرك نظام الدين (يعنى نظام الملك) سلامى وتعرّفه أن الجزء الأول من التفسير الذى جمعته قد ضاع وهو تفسير ـ بسم اللّه الرحمٰن الرحيم ـ واسأله أن يأمر باستنساخه من النسخة التى فى خزانته وينفذه لى...» إلى أن يقول: «وكان

(١) ياقوت ـ معجم البلدان جـ ٤ ص ٥٠٩.

(٢) وذكر المقريزى أنه فى سبعين مجلداً، ويقول التاج بن السبكى إنه اطلع على مجلدته ـ (ابن عساكر ـ التبيين ص ٢٩).

قد جمع تفسير القرآن فى مائة مجلد»[١]. وحكى أن الصاحب بن عباد بذل فيه عشرة آلاف دينار للخازن فى دار الخلافة وألقيت النار فى الخزانة فاحترقت النسخة الوحيدة بين تلك الكتب[٢]. وقد يكون هذا من مختلقات أبى حيان التوحيدى على الصاحب وإن عوّل عليه فى العواصم[٣]. ومما يرفض هذا الاختلاق وجود نسخة أخرى منه فى خزانة النظام بأصبهان وليست هى النسخة الوحيدة كما زعم.

وثانى المؤلفات الثمينة ما ذكره المؤرخون فى ترجمة ـ عبد السلام بن بندار المعتزلى المتوفى سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) قيل إنه قدم بغداد عقب عودته من مصر ومعه عشرة أحمال كتب وأكثرها بالخطوط المنسوبة، وقيل إنه ابتاعها بالخبز وقت شدة الغلاء، كما قيل إنه كان يحضر بيع كتب السيرافى فيشترى منها كل أسبوع بمائة دينار[٤].

ولكن أسامة بن منقذ ـ وهو ممن ولد بعد وفاة «النظام» بثلاثة أعوام يخبرنا نقلاً عن أبيه ـ وكانت له صلة بأبى يوسف القزوينى أوجبت زيارته له بأصبهان أنه عندما سافر إلى مصر فى أيام الحاكم بأمر اللّه أحسن إليه وأكرمه ووصله بصلات سنيّة، فاستعفى منها وسأله أن يجعل صلته كتبًا يقترحها من خزانة الكتب فأجابه إلى ذلك فدخل الخزانة واختار منها ما أراد من الكتب، ثمّ ركب مركبًا وتلك الكتب معه يريد بلاد الإسلام التى فى الساحل[٥].

ولعل الكتب التى أهداها ـ ابن بندار ـ إلى «النظام» كانت من جملة ما اختاره من خزانة دار خلافة الحاكم بأمر الله.. وهى أربعة أشياء لم يكن لأحد مثلها،

---

(١) أسامة بن منقذ ـ العصا ص ١٨٢، المجموعة الثانية من نوادر المخطوطات (نشر عبد السلام هارون).

(٢) أبو بكر المعافرى ـ العواصم من القواصم جـ ١ ص ٧٥.

(٣) ابن عساكر ـ التبيين ص ١٣٦.

(٤) الذهبى ـ تاريخ الإسلام م ١٢ ورقة ١٧، وسير أعلام النبلاء م ١١ ص ٥٦٢.

(٥) أسامة بن منقذ ـ العصا ص ١٨١ من المجموعة الثانية- نوادر المخطوطات (نشر عبد السلام هارون ص ٣٧٦).

منها: غريب الحديث لإبراهيم الحربى بخط أبى عمر بن حيويه فى عشر مجلدات فوقّفه «النظام» بدار الكتب ببغداد، ومنها شعر الكميت بن زيد بخط أبى منصور فى ثلاثة عشر مجلدًا، ومنها عهد القاضى عبد الجبار بخط الصاحب بن عباد وإنشائه يصفه بأنه فى سبعمائة سطر كل سطر فى ورقة سمرقندى وله غلاف آبنوس يطبق كالأسطوانة الغليظة، والرابع مصحف بخط منسوب وبين أسطره القرآن بالحمرة وتفسير غريبه بالخضرة، وإعرابه بالزرقة. وكتب بالذهب علامة على الآيات التى تصلح للانتزاعات فى العهود والمكاتبات وآيات الوعد والوعيد وما يكتب فى التعازى والتهانى[١].

وما أراد «النظام» أن يتقبل هذه الهدية السنية دون مقابل فأعطاه ثلثمائة دينار.. وهى لاشك قليلة بالنسبة إليها لذلك سمعنا ابن بندار يقول لمن سأله عن ذلك: «لقد أعطيت أكثر ما أعطانى ولكن رضيت منه بالإكرام وعذرته حين قال: ليس عندى حلال لا شبهة فيه سوى هذا القدر»[٢].

خازنوها ونوادر المخطوطات فيها:

ولأجل المحافظة عليها وتنظيم فهارسها فقد رتّب لها خزنة وموظفين وكان الخازن بمنزلة أمين المكتبة يتقاضى راتبًا قدره عشرة دنانير[٣] وقد رفعها «النظام» إلى خمسة عشر دينارًا فى مناسبة خاصة[٤]، وممن عاصره منهم:

١- القاضى أبو يوسف يعقوب بن سليمان الإسفراينى[٥] المتوفى سنة ٤٩٨هـ (١١٠٤م).

٢- يحيى بن علىّ أبو زكريا بن الخطيب التبريزى[٦] المتوفى سنة ٥٠٢هـ (١١٠٨م).

---

(١) السبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ٢٣.

(٢) الذهبى ـ تاريخ الإسلام م ١٢ ورقة ١٧.

(٣) هندوشاه ـ تجارب السلف ص ٣٣٤.

(٤) القزوينى ـ آثار البلاد ص ٣٢٧.

(٥) ياقوت ـ معجم الأدباء جـ ٦ ص ٣٤٣.

(٦) المصدر السابق جـ ٧ ص ٢٨٦، وبغية الدعاة ص ٤١٤.

٣- محمد بن أحمد الأبيوردى[١] المتوفى سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م).

أمّا المدرسة النظامية بنيسابور فقد حظيت خزانتها بديوان ـ أبى على الكافى العُمّانى ـ وأبى المظفر ناصر بن محمد ـ وقد ظفر الباخرزى بالأول وكان على جناح سفره فلم يتمكن من احتلاب دَرِّه، ولم يتوصل إلى اجتلاب دُرِّه[٢]، كما عثر على الثانى والتقط منه أبياتًا أحيى بها مواته، ونشر رفاته[٣].

ثمّ كتاب الحيوان بالفارسية للفقيه الحكيم أبى عبيد عبد الواحد الجوزجانى من خواص تلاميذ ـ أبى على بن سينا ـ وندمائه شارح رسالة حى بن يقظان ومفسّر مشكلات القانون[٤].. ثمّ كتاب «المفارقات وإعداد العقول والأفلاك وترتيب المبدعات لأبى عبد اللّه المعصومى الحكيم» من أفضل تلامذة ابن سينا، وهو الذى صنّف ـ أبو على ـ باسمه كتابه فى ـ العشق ـ يقول عنه البيهقى: «وكان فى الخزانة النظامية بنيسابور نسخة من كتاب ـ المفارقات ـ فأخذها ـ جمال الملك بن «نظام الملك» ـ ولا ندرى أطارت بها العنقاء أم أدركها الفناء؟»[٥].

وأمّا خزانة الكتب النظامية فى أصبهان فقد احتفظت ـ بكتاب معارضة الحماسة ـ لأبى الفضل الأصبهانى الذى عارض فيه كل بيت منها ببيت من قوله[٦].

الخزانة النظامية الخاصة:

تلك هى إشارة عابرة عن المكتبات النظامية العامة وما قام به «النظام» من فضل فى سبيل نشرها وفتح أبوابها للقاصدين من العلماء والوافدين من

(١) معجم الأدباء جـ ٦ ص ٢٤٣.
(٢) الباخرزى ـ الدمية ص ٢٤٢، ٢٤٣.
(٣) المصدر السابق ص ٢٤٢، ٢٤٣.
(٤) البيهقى ـ تتمة صوان الحكمة ص ٩٣.
(٥) المصدر السابق ص ٩٥، ٩٦.
(٦) القفطى ـ أخبار العلماء والحكماء ص ٣٢٨.

الطلاّب.. أمّا الخزانات الخاصة فقلّما يخلو منها بيت عالم ثرى، وقد اشتهر منها في المائة الخامسة: خزانة الشريف الرضى، وأخيه المرتضى، والخطيب البغدادى، وغرس النعمة الصابى، وابن جزلة البغدادى وغيرها[1].

وكان «للنظام» ـ وقد اجتمع لديه العلم والثراء ـ مكتبة خاصة قال عنها ـ الباخرزى ـ: «إنها غاية فى القيمة»، وكان يصرف مكافأة لمن يسافر إليها من الطلاّب[2]، وكان قد جمعها عن طريق الإهداء والشراء وتآليف العلماء التى صنّفت باسمه.. وقد يكون من النافع جدّا أن نلمح لبعضها على سبيل المثال، لتتجلى لنا صفحة أخرى من سيرة «النظام» بالنسبة لصلة علماء العصر به وموقفه منهم.

فمن أقدم ما عرفناه من مؤلفات باسم «النظام» كتاب ـ التبصيرفى الدين وتمييز الفرقة الناجية عن فرقة الهالكين ـ للشيخ الإمام/ أبى المظفر طاهر بن محمد الاسفراينى المتوفى سنة ٤٧١هـ[3]، وكان أصوليّا فقيهًا سافر فى طلب العلم وارتبطه «نظام الملك» بطوس[4].

ولنستمع إلى المؤلف نفسه فى المقدمة فهو يقول: «لّما كان الشيخ الأجلّ الوزير (أبو على الحسن بن على بن إسحق) قد خصّه اللّه بجلائل نعمه وفضائل قسمه.. قائمًا بنصرة أهل الدين، سيفًا مصلتًا على أهل الزيغ والمبتدعين.. ناظرًا لأهل الدين ومناهجهم وأهل الدنيا ومصالحهم.. ولّما كان بابه الرفيع مصطفق الرفاق، وملتقى الرجال من كل أدب فى الآفاق، وكان فيهم الأصناف المختلفة، والأجناس المتباينة وكان بلطيف نظره يتأمل عقولهم

(١) انظر: فى ذلك تراجمهم فى معجم الأدباء لياقوت، وكتاب: خزائن الكتب القديمة فى العراق لكوركيس عوّاد.

(٢) الباخرزى ـ دمية القصر ص ٧.

(٣) وفى كشف الظنون لحاجى خليفة جـ٢ ص ٢٣٩: شفهور بن طاهر الشافعى.

(٤) ابن عساكر ـ التبين ص ٢٧٦- السبكى جـ ٣ ص ١٧٥.

وأحوالهم ليرفع من كان فى دينه رفيقًا، ويضع من كان فى طريقه وضيعًا، جمعت لشريف خزانته كتابًا، فارقًا بين الفريقين جامعًا بين وصفى الحق وخاصيته والإرشاد إلى حججه، ووصف الباطل وحدّ شبهه»[١]..

وثانى ما عرفناه من الكتب التى ألّفت باسمه مجموعة تحتوى على ثلاث رسائل هى: الغياثى والنظامى والعقيدة النظامية ـ صنّفها الإمام ـ أبو المعالى الجوينى ـ أستاذ نظامية نيسابور وعميدها، وعنوّنها بألقاب الوزير غياث الدولة ونظام الملك وعقيدته، فلقيت من المهدى إليه كل رعاية وشكر وتشجيع وقوبلت بالخلع والهدايا والرسوم[٢].

هكذا وردتنا بأسماء ثلاثة كما ذكرها معظم الذين ترجموا لأبى المعالى الجوينى.. غير أنا بعد مراجعة الفهارس والكشوف لأمهات المكتبات لم نظفر بمن يتعرض لوصف الكتاب الثانى، أو نعثر على ما ينبئنا بموضوعه ـ النظامى ـ أو عن أى شىء يتصل به، لذلك أصبح من المحتمل أن يكون الكتاب قد ضاع كغيره من آلاف الكتب التى فقدت وبقيت أسماؤها أو أن الكتاب هو نفسه الذى أطلق عليه ـ العقيدة النظامية.

ليس من اليسير الجزم بأحد الاحتمالين ولكن المنطق يميل بنا إلى الثانى، إذ ليس من المعقول أن يؤلّف كتاب باسم النظامى وآخر باسم العقيدة النظامية عدا فقدانه وعدم وجود تفصيل عنه.. أمّا الكتابان الآخران فقد قرأنا عن أولهما باسم ـ غياث الأمم والتيات الظُلَمَ ـ فى الإمامة وهو كتاب صنّفه ـ الجوينى ـ للوزير غياث الدين «نظام الملك» وسمّاه الغياثى، سلك فيه غالبًا مسلك الأحكام السلطانية[٣].. «ولم يزل مهملاً فى زوايا الظُلم قابعًا فى مطاوى النسيان، ما أحوج المكتبة العربية لإخراجه إلى عالم النور، والإفادة منه فى موضوع الإدارة والنظُم بعد أن صانته الأقدار من التمزيق وحفظته الصدف من الضياع».

(١) التبصير فى الدين ٣، ٤.

(٢) طبقات السبكى جـ ٣ ص ٢٤٩ ـ ٢٨٢.

(٣) حاجى خليفة ـ كشف الظنون جـ ٢ تحت رقم ٤٠ سياسة واجتماع، وعدد أوراقه ثمانون.

وكان ثانيهما خيرًا من سابقه حظًا، فقد خصّ بعناية أحد الباحثين المحدثين ونشره معتمدًا على مخطوطة واحدة[1]، فخرج إلى دنيا المتعلمين، ولكنه ـ مع الأسف ـ كثير التصحيف والأغلاط فضلاً عن أنه يحوى القسم الأول الخاص بالعقيدة، وأصول الدين من الكتاب فقط دون تكملته فى التشريع وأركان الإسلام.

وكان الجوينى فى رسالته يريد ـ كما تنص مقدمتها ـ أن تنوب عنه فى تمهيد معاذيره وتشعر ببذله المجهود فى الخدمة وتشهيره.. ومهرها أن تقع من السدة السامية موقع القبول ومتضمنها عقائل العقول.. وقد صدّرها بقواعد عن العقائد على أساليب لم يسبق إليها، ثم أتبعها بما لا يسوغ الذهول عنه من أركان الإسلام وسمّاها ـ النظامية فى الأركان الإسلامية[2].

وآخر ما عرفناه من الكتب التى وضعت باسمه هو كتاب دستور اللغة ـ لمؤلفه بديع الزمان تظنزى المتوفى سنة ٤٩٧هـ، وقال المؤلف على هامش المقدمة بخطه: حرّرها الشيخ الأديب ذو اللسانين أسعده اللّه فى الدارين للمجلس الشريف النظامى لازال قصر عمره عامرًا... إلخ[3]. ولكن بعض الفهارس تذكر أنه ألّفه لمجلس الأجلّ جمال الملك النظامى... إلخ[4]. ولعلّ هذا من خطأ الطبع ولو كان صوابًا لأتى فى مقدمته بما يوضح هذا اللبس.

أثر النظاميّات في المدارس الأخرى:

وبعد فقد وفّق «النظام» توفيقًا قلّ نظيره فى التاريخ السياسي والعلمي والدينى جميعًا، فقد عاشت مدارسه أمدًا طويلاً وعلى الخصوص نظامية بغداد التى

(١) العقيدة النظامية ـ الجوينى- تصحيح وتعليق: محمد زاهد الكوثرى ط مصر/ ٩٤٨.

(٢) مقدمة الكتاب ص ٨.

(٣) ويسمى باسم كتاب «الخلاص»، وأيضًا ذكره كشف الظنون والمعانى فى الأنساب، ومعجم البلدان - عدد أوراقه ١٦٨ تحت رقم ٧٠٣٩، فهرس كتبخانة مجلس.

(٤) هو أبو عبد اللّه حسين بن إبراهيم؛ وله كتاب المرقاة فى اللغة الفارسية، وذكره السيوطى فى البغية. فهرست كتابخانة- سپهسالار جـ ٢ ص ١٧٩.

طاولت الزمن زهاء أربعة قرون[1]، إذ كان آخر من عرفنا ممن درس فيها صاحب القاموس ـ الفيروز آبادى ـ المتوفى سنة ٨١٧هـ، حيث زالت فى نهاية القرن التاسع الهجرى[2]. وأدت رسالتها من تخريج العلماء على المذهب السنّى الشافعى دين الدولة الرسمى يومذاك ومذهب الخلفاء منذ عهد الخليفة ـ القادر بالله ـ فى الثلث الأول من القرن الخامس، وإن كان الخلفاء أحنافًا فى أغلب الأحيان ومالكية فى بعضها[3]. وزوّدت الجهاز الحكومى بالموظفين ردحًا من الزمن وبخاصة دوائر القضاء والحسبة والاستيفاء وهى من أهم وظائف الدولة فى ذلك العصر، وانتشر هؤلاء فى العالم الإسلامى حتى اخترقوا حدود الباطنية فى مصر وبلغوا شمال أفريقيا وأسّسوا دولة الموحدين التى كان لها أثرها فى تاريخ المغرب العربى فى القرن السادس الهجرى[4].

وكان من مظاهر توفيق «النظام» فى مشروعه العلمى الجديد أيضًا أن صارت مدارسه معاهد للبحث العلمى النظرى ومركزًا لتتبعات الباحثين فى مختلف الثقافات الوافدة والأصيلة، وظهرت ثمارها فى المؤلفات العلمية والدواوين الشعرية باللغتين الفارسية والعربية، التى رأينا قسمًا ضئيلاً منها ونحن نستطرد الحديث من الناحية العلمية والمدارس النظامية.

وكان من أهم ظواهر التوفيق أن صارت النظاميات مدعاة لبناء المدارس، ومثارًا للتنافس بقدر ما أصبحت نموذجًا يقتديه مؤسسو المعاهد منذ بداية تشييدها إلى ما بعد ذلك بعصور طويلة، ولعلّ أول تلك المدارس التى اتخذت من النظامية حافزًا ومنافسًا لها وشيّدت على غرارها هى مدرسة أبى سعيد المستوفى بباب الطاق فقد دخل مؤسسها بغداد عام ٤٥٧هـ - ١٠٦٥م وشهد نواب «النظام» يبنون له مدرسة ولم يغب عليه مدى تحمسّه لمذهب الشافعى بينما كان

(١) نظامية بغداد.

(٢) ابن العماد ـ شذرات الذهب جـ ٦ ص ٣٥١.

(٣) المنتظم جـ ٨ ص ١٠٩، ١٤٩، ٢٠٧.

(٤) السبكى ـ ترجمة عبد الله بن تومرت جـ ٤ ص ٧١ ـ ٧٤.

هو متعصبًا لأصحاب أبى حنيفة فبنى لهم مدرسة باب الطاق إزاء قبر «أبى حنيفة» وألحق بها خزانة للكتب وكان ممن أوقف عليها كتبه[١] سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م قبيل افتتاح النظامية بأشهر، وبنى أخرى بمرو ووقف فيها كتبًا نفيسة[٢].

وثانى تلك المدارس التى جعلت من نظامية بغداد نموذجًا لها ثم طمعت فى منافستها واحتلال مكانتها هى المدرسة ـ التاجية ـ التى أمر ببنائها ـ تاج الملك أبو الغنائم ـ عند دخوله بغداد مع السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ وعند استيزاره خلفًا «لنظام الملك».

ثم المدرسة النظامية بخوارزم التى أسّسها ـ نظام الملك ـ الصغير، حفيد «نظام الملك» الكبير وقد اشترك معه فى اللقب والوزارة والتحمس للمذهب الشافعى وحسن الخاتمة[٣]. ثم المدرسة «الشرفية» نسبة إلى شرف الدين أبى طالب المتوفى سنة ٥٦١هـ. وكان قد درس بنظامية بغداد على يد أبى بكر الشاشى وأسعد الميهنى ثم رحل إلى حلب وبنى مدرسته هذه على نمط النظامية وهى أول مدرسة شيّدت فى حلب[٤].

ثم المدارس ـ الواسطية ـ كمدرسة خطلوبرس[٥] ـ ت ٥٦١هـ، ومدرسة ـ

(١) ابن جزلة – الطبيب – راجع المنتظم جـ ٩/ ١١٩، والتكملة جـ ١/ ٨٨٧.

(٢) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ٨/ ٢٤٥، والبندارى: زبدة النصرة/ ٣٢ حيث يقول: ووجدهم شرعوا فى بناء المدرسة فاغتنم اقتداره على الاقتداء . مصطفى جواد ـ مجلة المعلم الجديد فى بغداد جـ ٦ سنة ١٩٤٠م.

(٣) هو مسعود بن على كان وزيرًا للسلطان ـ خوارزمشاه، وأعزم ببناء المدارس ثم اغتيل على يد الملاحدة سنة ٥٥٦هـ (طبقات السبكى جـ ٤ ص ٣٠٩).

(٤) هو عبد الرحمن بن حسن بن عبد الرحمن المشهور بابن العجمى الحلبى، وتعرف مدرسته هذه بالزجاجية أيضًا لأنها بنيت بسوق الزجاجين، ثم جدّد بناءها الأمير ـ بدر الدين سليمان بن أرتق. (انظر: سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٢٥٠) ثم أعيد بناءها سنة ١٣٤٠هـ وجمع فيها ما بعثر من كتب فى الزوايا والتكايا والمساجد ودعيت بدار كتب الأوقاف الإسلامية.

(٥) فوات الوفيات جـ ٢ ص ٢٩، ومخطوطة الدبينى فى المكتبة الأهلية بباريس، ناجى معروف: المدارس الشرابية جـ ٢٦٥.

شرف الدولة محمد بن ورام[1]، والمدرسة الشرفية الشرابية[2] ت ٦٥٣هـ.

ثمّ المدرسة المستنصرية التى بدئ فى عمارتها سنة ٦٢٥هـ وتمّت سنة ٦٣٠هـ، وقد وصف لنا حفل افتتاحها وأدواتها ونظمها ـالصلاح الصفدى[3] ـ كما وصف لنا موقعها وكيفية التدريس بهاـ ابن بطوطة[4] ـ ولم تزل ـ على الرغم من مناهضة التتر والأتراك العثمانيين لها[5] ـ تحتفظ بأروقتها وأساطينها كما تحتفظ جدرانها بآى القرآن فى أعاليها وعلى أطرافها وفوق طبقات أبوابها، وإلى جنبها دار حفظ القرآن، ولكن اتخذت منه ـ وزارة الأوقاف ـ دكانًا تستأجره لاسكافى ـ كما شاهدت ـ مع الأسف ـ ومن دار الحديث مقهى يروده العامة لشرب الشاى والتلهية بلعب الشطرنج والنرد وأمثالها. كان هذا فى عام ١٩٥٤م. أمّا الآن فقد بذلت الجمهورية العراقية جهدًا لإعادة مكانتها وترميم أروقتها.

وآخر ما نعرفه من أمثلة هذه المدارس التى كانت صدى للحركة العلمية التى أحدثها «النظام» فى الشرق الإسلامى هى المدرسة «المرجانية» التى أشرنا إليها سابقًا، فقد حاول ـ مرجان[6] ـ فى شهور سنة ٧٥٨هـ أن يشيّد مدرسة عليا يحاكى بها ـ النظامية ـ من حيث بناؤها ومناهج دراستها، وتنظيم إدارتها، وأوقف لها الوقوف وسجّلها على جدرانها، ومازالت قائمة إلى اليوم بالقرب من الجامع الذى يعرف باسمه، وفى مدخل ما يسمى بسوق «الشورجة» ويفصل بينهما شارع الرشيد أمام المصرف المركزى للدولة الآن.

(١) ابن بطوطة ـ رحلته.

(٢) المدرسة المستنصرية، الذهبى والأعلام للنهروانى ص ١٧٤.

(٣) قطب الدين النهروانى ـ الأعلام ص ١٧٤-١٧٥.

(٤) هو مرجان بن عبد الله بن عبد الرحمن الأوجلايتى ـ من موالى السلطان ـ أويمرين الشيخ حسن ـ الايلخانى، أحد أمراء التتر وكان واليًا على بغداد، وبنى مدرسته هذه ودفن فيها. (الألوسى ـ مساجد بغداد وآثارها ص ٦٥).

(٥، ٦) بحث الواسطى فى تاريخه المخطوط عن واسط، وناجى معروف- المدارس الشرابية جـ ٢٦٨، ٢٧١- والحوادث الجامعة سنة ٦٣٢هـ.

وفن المآخذ علي النظامية:

وفى الوقت الذى كانت ـ النظاميات ـ مثلاً يحتذى فى سمّو أغراضها ورقىّ نظم الدراسة فيها فإنها كانت لا تخلو من مآخذ ومخاوف فى هذه الناحية نفسها. . . وكان أول ما خشيه العلماء من ابتداع «النظام» لمدارسه: منح الأجور للأساتذة والطلاب فصار العلم ـ فى نظرهم ـ حرفة وصار أهلوه كسبة وصار التزاحم عليه لا لشرف العلم وإعلائه ومثوبة اللّه وإرضائه، بل لتحصيل المنصب والمال وبذلك هبط مستوى العلم كما نزل قدر العلماء. . وهذا ما دفع بفضلاء ما وراء النهر أن يتخذوا للعلم مأتمًا وحزنوا على سقوط حرمته حينما بلغتهم أخبار هذه النظاميات[1].

ومما يؤخذ على «النظاميات» كذلك ربط المدارس بدوائر الحكم وعدم استقلالها وخضوع العلم للسياسة ونفوذ الحكام، والسياسة إذا دخلت حظيرة العلم أفسدته إذ إن أول ما تعنى به وتسعى لنشره إنما هو صالح الفئة الحاكمة، والدعوة لها ولمعتقداتها على حساب العلم، وتسخير أقلام العلماء وألسنة الأدباء فى الثناء عليهم، والدفاع عن مصالحهم، وبذلك وصلنا ركام من التآليف والدواوين ازدحمت فى ثناياها عبارات التبجيل والتقديس، وقصائد الإطراء والثناء[2]. كما شهدنا عزل المدرس وتنصيب آخرين فى فترات قصيرة، وقد يتناوب مدرسان على كرسى واحد فى آنٍ واحد بدوافع سياسية.

ويؤخذ على النظاميات ثالثًا أن «الوزير» فرض عليها نمطًا خاصًا من الدراسات فى العقائد والعلوم، فلا يكون المدرس ولا الموظف إلاّ شافعيًا وهذا يعني ألاّ تكون التدريسات فى علوم الفقه وما وراء الطبيعة إلاّ على مذهب الشافعى فى الفروع والأشعرى فى الأصول وهو طريق لا يمكن للمعارف فيه أن تتسع وللفكر أن ينمو، ما لم تعش فى جوّ حرّ ونقد نزيه.

---

(١) الصفدى- حوادث سنة ٦٣١هـ.

(٢) انظر: مقدمات الكتب التى ألّفت باسم «النظام» وأهديت له كالعقيدة النظامية للجوينى.

غير أن الوزير ـ فى واقع الأمر ـ بإنشائه مدارسه ومؤازرته لها لم يمنع فتح المدارس للمذاهب الأخرى، ولذلك كانت مدارس الأحناف والحنابلة والشيعة ومساجدهم الى جنب مدارسه، ولم يكن يضيق بكل هذه المدارس ولا بزعمائها وتلاميذها فإن مجلسه كان منتدى لهؤلاء وأولئك، وكان هو أول من يثير غوامض المسائل الخلافية ليستمع إلى مناظراتهم ومناقشاتهم، ويقرّب أصحاب المدرسة الروحية من المتصوّفة، كما يدنى منه أنصار المدرسة العقلية من المعتزلة ويشجّع أصحاب المدرسة الخيالية من الشعراء على اختلاف نزعاتهم الدينية.

ومع هذا وذاك فقد كانت «المدارس» من خير ما اهتدى إليه العقل البشرى للتفرغ للعلم، وكانت «النظاميات» من أفضل الوسائل لنشره وتعميمه وتحقيق أهداف «النظام» وغاياته، وكانت الدولة الفاضلة من وراء ذلك كلّه هى الهدف الأعلى الذى يقصده، والأمل المرجو الذى يبتغيه وينشده. وهذا ما سنتعرضه فى الفصل الثالث من الباب الرابع.

* * *

obeikandl.com